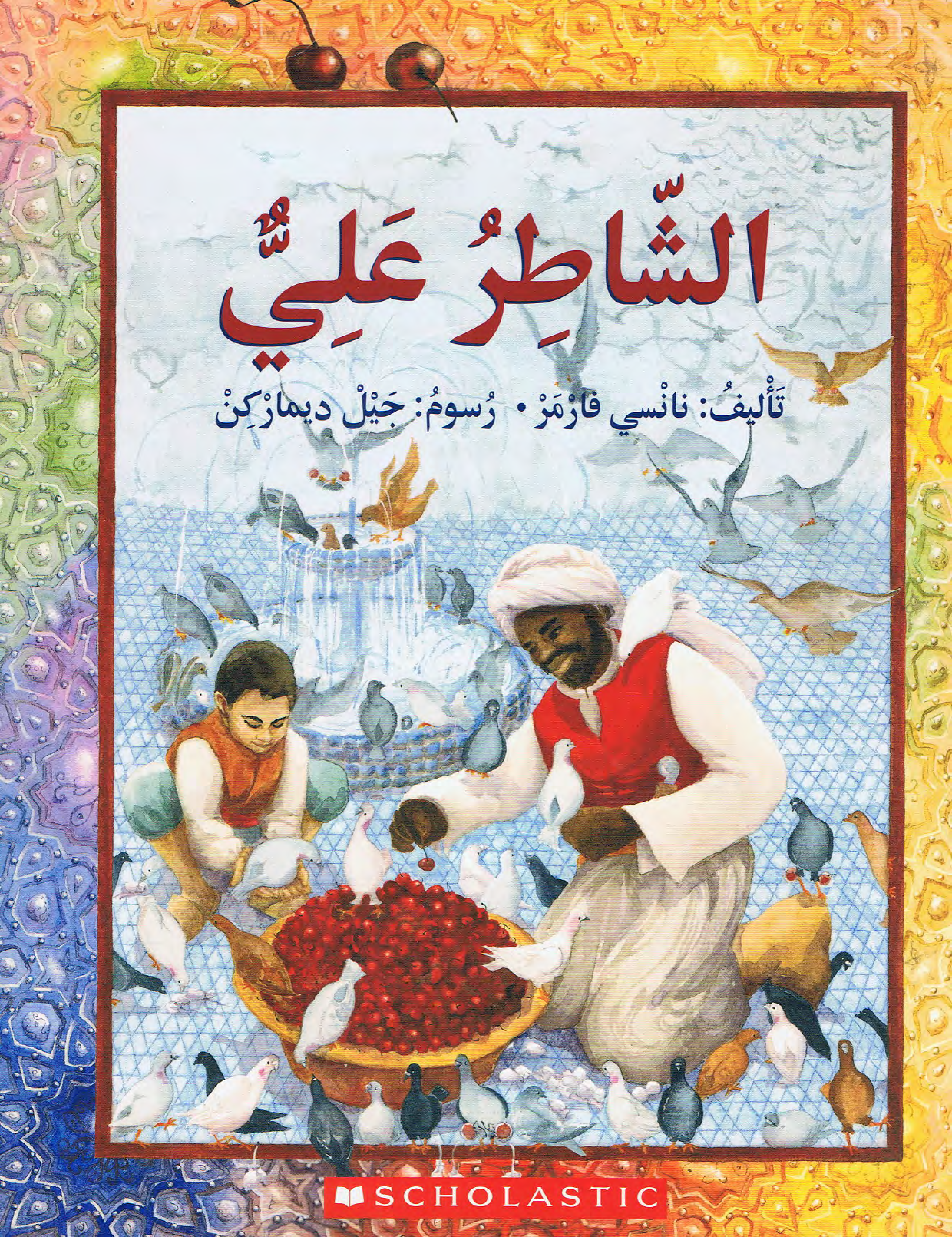
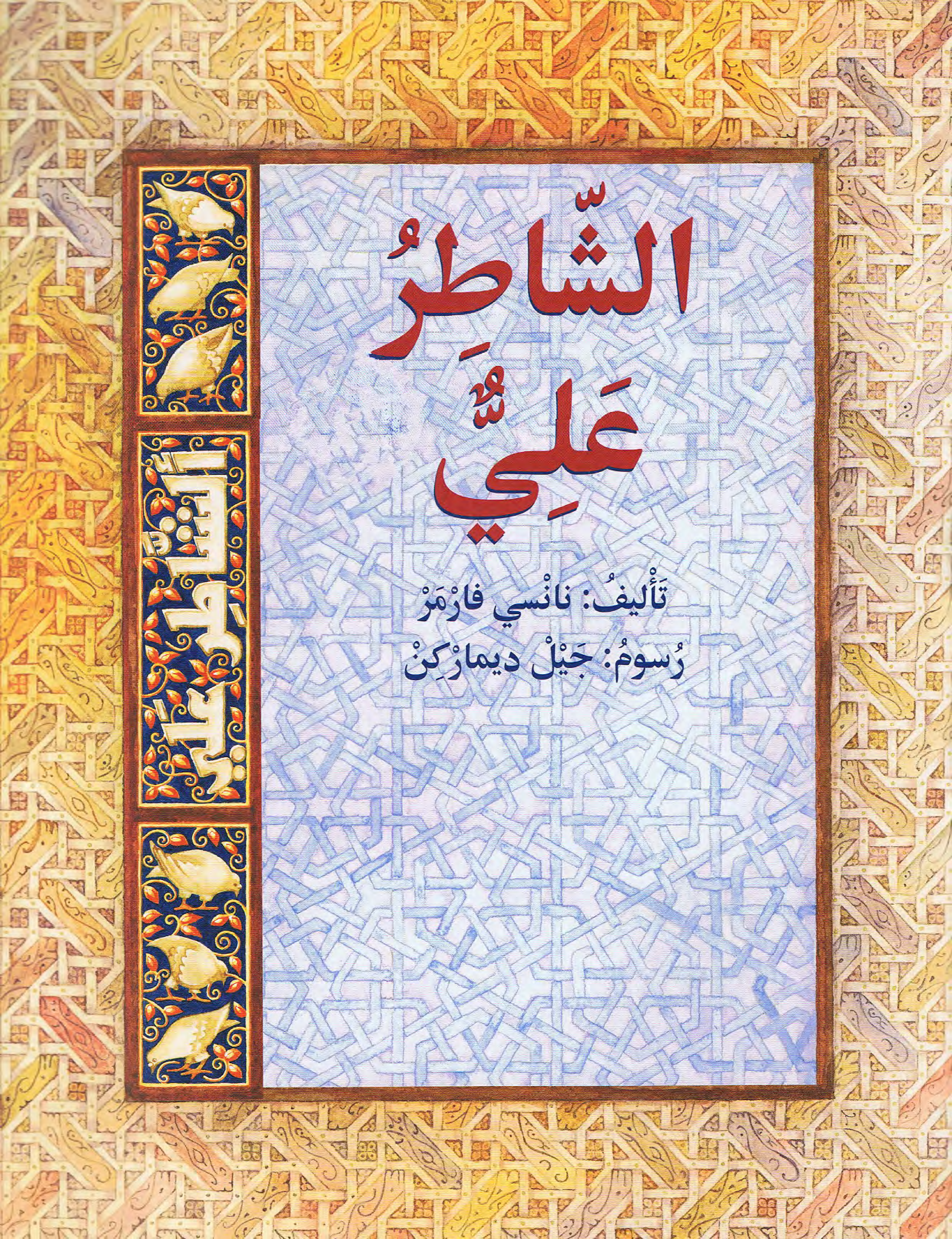


الشّاطِرُ عَلِيٌّ
تَأْليفُ: نانْسي فارْمَرْ • رُسومُ: جَيْلْ ديمارْكِنْ
SCHOLASTIC



الشّاطِرُ
عَلِيٌّ
تَأْليفُ: نانْسي فارْمَرْ
رُسومُ: جَيْلْ ديمارْكِنْ
الشّاطِرُ عَلِيٌّ



فِي مَدْحِ الْكُتُبِ

الْكِتابُ بُسْتانٌ يُحْمَلُ في رُدْنٍ

وَرَوْضَةٌ تُقْلَبُ في حِجْرٍ.

الْكِتابُ مُؤْنِسٌ لا يَنامُ إِلّا بِنَوْمِكَ،

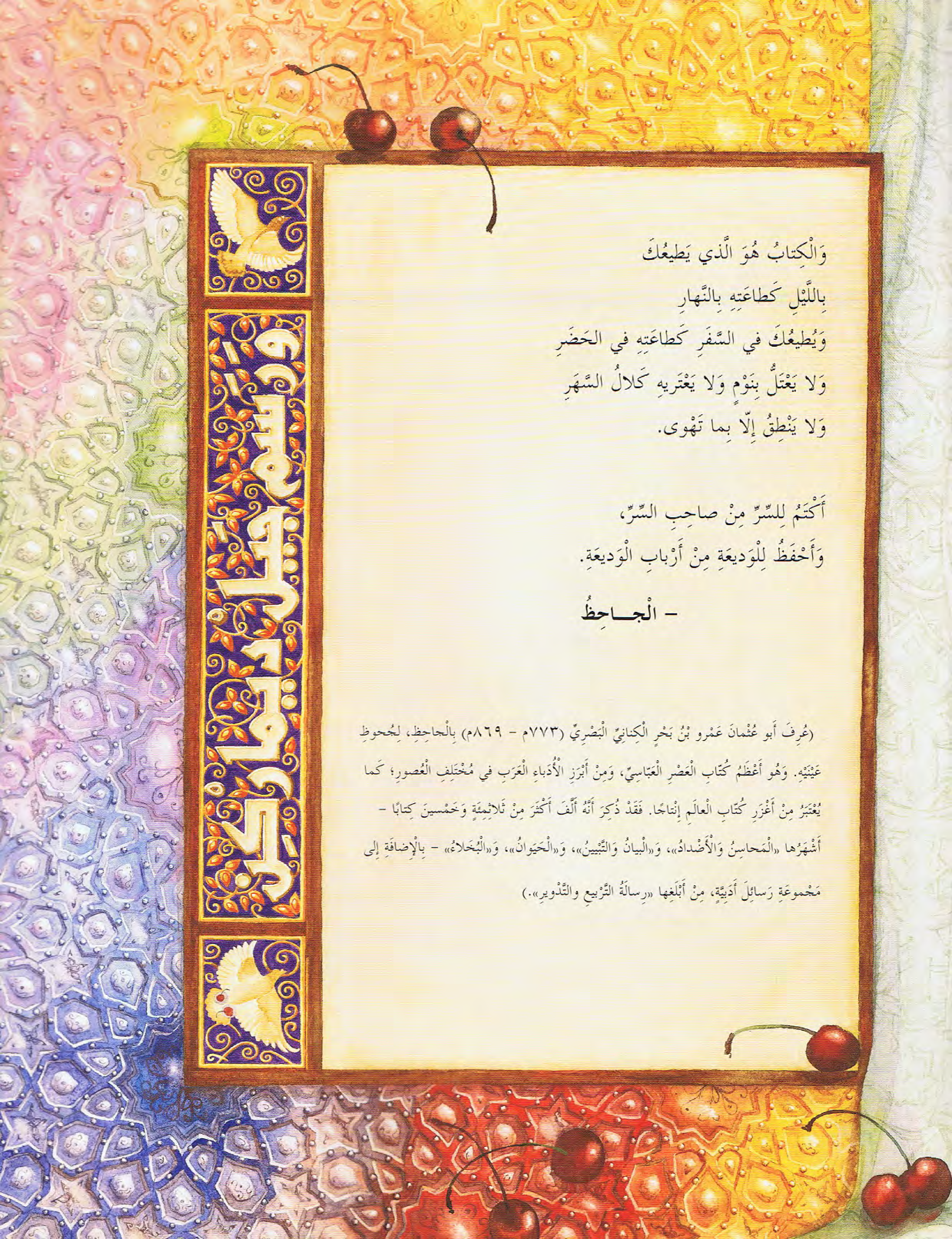
وَلا يَنْطُقُ إِلّا بِما تَهْوى.

لا شَجَرَةٌ أَطْوَلُ عُمْرًا وَلا أَجْمَعُ أَمْرًا

وَلا أَطْيَبُ ثَمَرَةً وَلا أَقْرَبُ مُجْتَنًى

وَلا أَسْرَعُ إِدْراكًا وَلا أَوْجَدُ في كُلِّ أَبانٍ

مِنْ كِتابٍ.



وَالْكِتابُ هُوَ الَّذي يَطيعُكَ
بِاللَّيْلِ كَطاعَتِهِ بِالنَّهارِ
وَيُطيعُكَ في السَّفَرِ كَطاعَتِهِ في الحَضَرِ
وَلا يَعْتَلُّ بِنَوْمٍ وَلا يَعْتَريهِ كَلالُ السَّهَرِ
وَلا يَنْطِقُ إِلّا بِما تَهْوى.

أَكْتَمُ لِلسِّرِّ مِنْ صاحِبِ السِّرِّ،
وَأَحْفَظُ لِلْوَديعَةِ مِنْ أَرْبابِ الْوَديعَةِ.

– الْجـاحِظُ

(عُرِفَ أَبو عُثْمانَ عَمْرو بْنُ بَحْرٍ الْكِنانِيّ الْبَصْرِيّ (٧٧٣م - ٨٦٩م) بِالْجاحِظِ، لِجُحوظِ عَيْنَيْهِ. وَهُو أَعْظَمُ كُتّابِ الْعَصْرِ الْعَبّاسِيّ، وَمِنْ أَبْرَزِ الْأُدَباءِ الْعَرَبِ في مُخْتَلِفِ الْعُصورِ؛ كَما يُعْتَبَرُ مِنْ أَغْزَرِ كُتّابِ الْعالَمِ إِنْتاجًا. فَقَدْ ذُكِرَ أَنَّهُ أَلَّفَ أَكْثَرَ مِنْ ثَلاثِمِئَةٍ وَخَمْسينَ كِتابًا – أَشْهَرُها «الْمَحاسِنُ وَالْأَضْدادُ»، وَ«الْبَيانُ وَالتَّبْيينُ»، وَ«الْحَيَوانُ»، وَ«الْبُخَلاءُ» – بِالْإِضافَةِ إِلى مَجْموعَةِ رَسائِلَ أَدَبِيَّةٍ، مِنْ أَبْلَغِها «رِسالَةُ التَّرْبيعِ والتَّدْويرِ».)



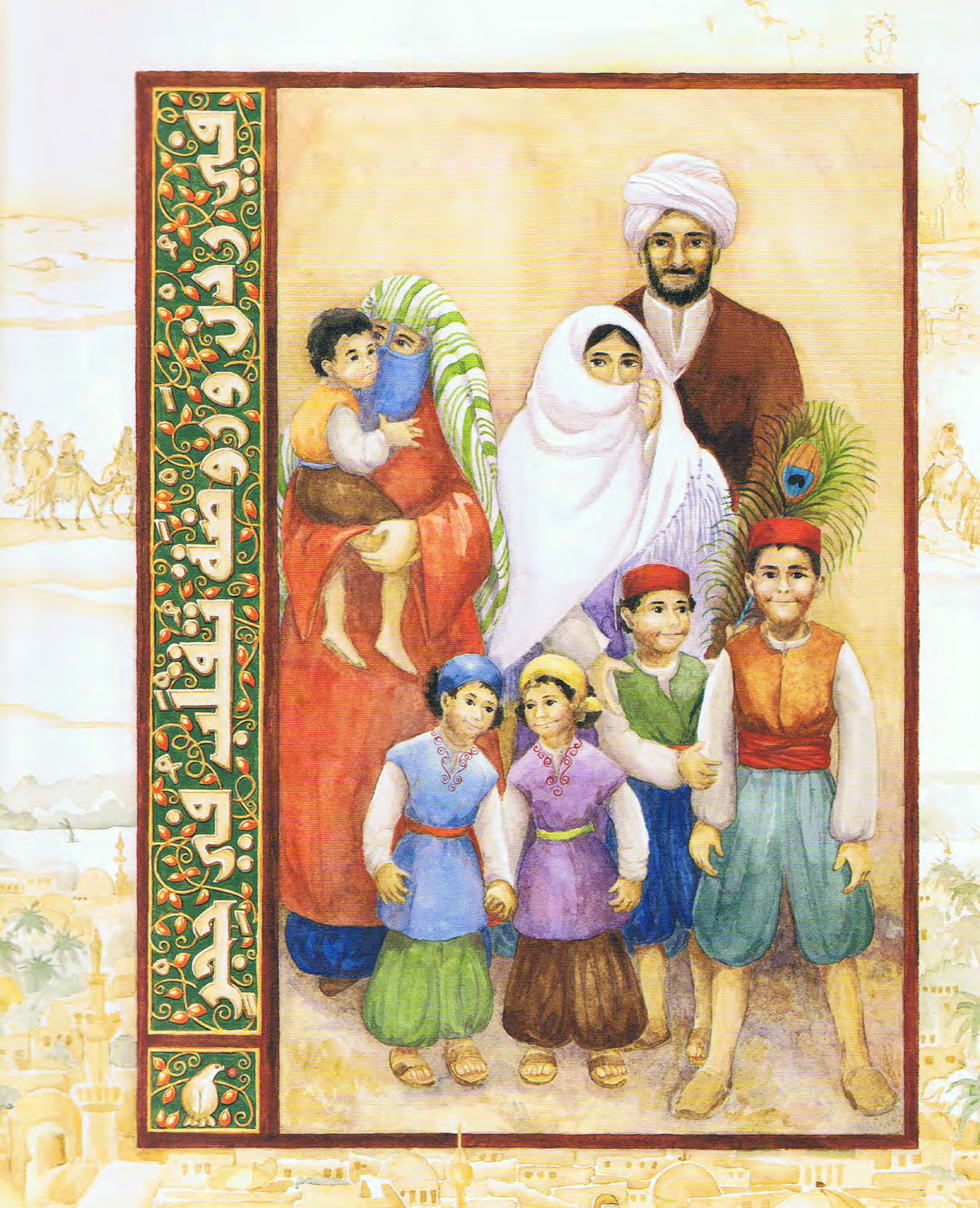
فِي قَديمِ الزَّمانِ، عاشَ صَبِيٌّ صَغيرٌ يُدْعى عَلِيٌّ في أَحَدِ الْمَنازِلِ الَّتي تَقَعُ عَلى ضِفَّةِ نَهْرِ النّيلِ الْمَكْسُوَّةِ بِنَباتِ الْأَسيلِ. كانَ لِعَلِيٍّ أَخَوانِ صَغيرانِ وَأُخْتانِ صَغيرَتانِ، كَما كانَتْ لَهُ أُمّانِ هُما والِدَتُهُ الْحَقيقِيَّةُ زَيْنَبُ، وَزَوْجَةُ أَبيهِ فاطِمَةُ.

كانَ والِدُ عَلِيٍّ يَشْغَلُ مَنْصِبًا مُهِمًّا، فَهُوَ يُشْرِفُ عَلى الْحَمامِ الزّاجِلِ السُّلْطانِيِّ في الْقاهِرَةِ، وَكانَ يَكْتُبُ الرَّسائِلَ الَّتي يُريدُ السُّلْطانُ إِرْسالَها بِأَحْرُفٍ صَغيرَةٍ عَلى قُصاصَةٍ مِنَ الْوَرَقِ الْخَفيفِ، وَيَرْبِطُها تَحْتَ جَناحِ إِحْدى الْحَماماتِ، ثُمَّ يُطْلِقُها لِنَقْلِ الرِّسالَةِ.

عُرِفَ السُّلْطانُ بِأَنَّهُ شِرّيرٌ شَديدُ الْقَسْوَةِ؛ لِذلِكَ كَثُرَ أَعْداؤُهُ، فَكانَ يُتابِعُ أَخْبارَ تَسَلُّلاتِهِمْ عَنْ طَريقِ الرَّسائِلِ الَّتي يَحْمِلُها إِلَيْهِ الْحَمامُ الزّاجِلُ مِنْ أَنْحاءِ مِصْرَ الْمُخْتَلِفَةِ.

عِنْدَما بَلَغَ عَلِيٌّ عامَهُ السّابِعَ، قالَ لَهُ والِدُهُ: «بُنَيَّ، إِنَّكَ تَخْطو أولى خُطُواتِكَ نَحْوَ الرُّجولَةِ. وَمِنَ الْيَوْمِ، سَتَنْتَقِلُ إِلى جَناحِ الرِّجالِ في الْبَيْتِ. كُنْ جاهِزًا في الصَّباحِ الْباكِرِ، كَيْ آخُذَكَ مَعي إِلى الْقَصْرِ؛ لِتَتَعَلَّمَ عَنِ الْحَمامِ الزّاجِلِ».

هَيَّأَتِ الْأُمُّ ثِيابَ عَلِيٍّ، فَأَخَذَها عُثْمانُ، خادِمُ الْأُسْرَةِ وَحارِسُها الْأَمينُ؛ إِلى جَناحِ الرِّجالِ.

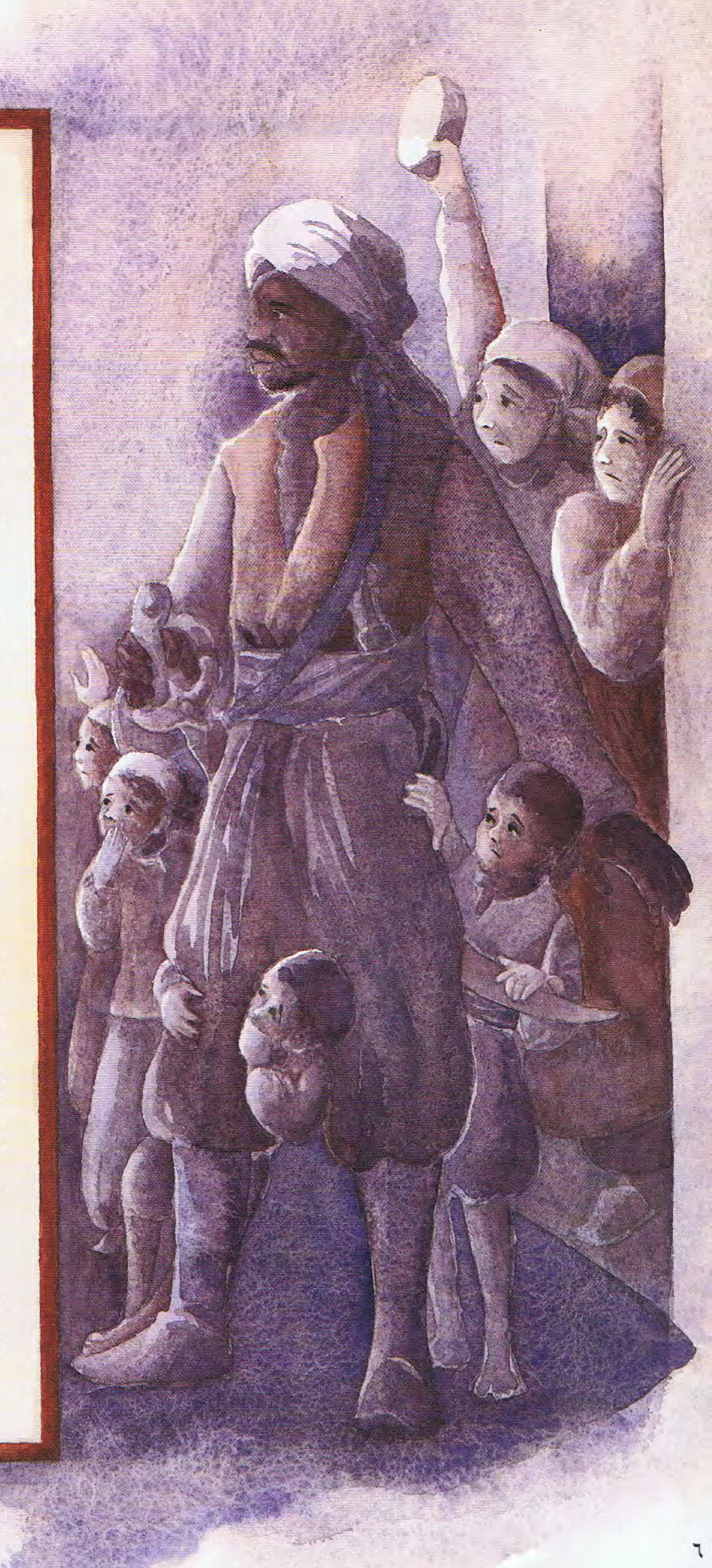

في ردن وروضة تقلب في حجر

كانَ عُثْمانُ رَجُلًا ضَخْمًا جِدًّا، يَقِفُ في الْمُعْتادِ أَمامَ الْبابِ الْأَمامِيِّ؛ حامِلًا سَيْفَهُ الْأَحْدَبَ الْكَبيرَ، لِمُجابَهَةِ اللُّصوصِ الْمُحْتَمَلينَ. وَهُوَ مِنْ بِلادٍ ذاتِ طَبيعَةٍ حارَّةٍ وَقاسِيَةٍ؛ يُصارِعُ رِجالُها التَّماسيحَ رِياضَةً وَتَسْلِيَةً.

ما إِنْ انْكَشَفَتْ ظُلْمَةُ اللَّيْلِ عَنْ بِدايَةِ نورِ الصَّباحِ، وَصارَ مِنَ الْمُمْكِنِ تَمْييزُ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ عَنِ الْأَبْيَضِ، حَتّى كانَ عَلِيٌّ جاهِزًا لِلذَّهابِ. كانَتْ زَيْنَبُ وَفاطِمَةُ واقِفَتَيْنِ بِالْبابِ، وَمَعَهُما الصِّغارُ الْأَرْبَعَةُ، لِتَوْديعِ عَلِيٍّ.

تَوَجَّهَ عَلِيٌّ بِصُحْبَةِ والِدِهِ عَبْرَ الْأَزِقَّةِ وَالشَّوارِعِ، فيما بَدَأَتِ الْقاهِرَةُ تَسْتَيْقِظُ بِبُطْءٍ، وَفي طَريقِهِما إِلى الْقَصْرِ مَرّا بِرِجالٍ يَقودونَ الْحَميرَ مِنَ الْاصْطَبْلاتِ، وَنِساءٍ مُسْرِعاتٍ إِلى السّوقِ لِشِراءِ السَّمَكِ.

كانَتْ أَراضي الْقَصْرِ شاسِعَةً، فَشَعَرَ عَلِيٌّ بِالْخَوْفِ، وَصارَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ: لَنْ أَتَمَكَّنَ قَطُّ مِنْ إيجادِ طَريقي هُنا.







...سَلَكَ عَلِيٌّ وَوالِدُهُ طَريقًا كَثيرَ الْانْعِطافاتِ حَتّى وَصَلا إِلى بُرْجِ الْحَمامِ الزّاجِلِ. كانَ ذلِكَ الْمَبْنى الْكَبيرُ مُقَسَّمًا ثَلاثَ غُرَفٍ: الْأولى، لِإِناثِ الْحَمامِ؛ وَالثّانِيَةِ، لِذُكورِ الْحَمامِ؛ وَالثّالِثَةِ، لِأَزْواجِ الْحَمامِ مَعَ زَغاليلِها. وَفي الْخارِجِ، باحَةٌ تَتَوَسَّطُها فِسْقِيَّةٌ رُخامِيَّةٌ صَغيرَةٌ زَرْقاءُ؛ يَنْبَجِسُ مِنْها ماءُ النّافورَةِ.

قالَ أَبو عَلِيٍّ لِابْنِهِ: «يَجِبُ أَلّا تَدَعَ الْحَمامَ يَطيرُ في اللَّيْلِ، أَوْ في الْمَطَرِ، أَوْ عِنْدَما يَكونُ جائِعًا. وَأَهَمُّ ما في الْأَمْرِ أَلّا تُطْعِمَهُ أَكْثَرَ مِمّا يَنْبَغي؛ لِأَنَّ الْإِفْراطَ يَجْعَلُهُ مُدَلَّلًا وَأَنانِيًّا. فَإِيّاكَ مِنْ ذلِكَ!»

في ذلِكَ الْوَقْتِ، بَدَتِ الشَّمْسُ كَأَنَّها تَتَسَلَّقُ الْأَسْوارَ الْمُحيطَةَ بِالْقَصْرِ. أَشَعَّتْ عَلى الْفِسْقِيَّةِ الْجَميلَةِ، فَتَلَأْلَأَتْ تَحْتَها مِياهُ النّافورَةِ. فَشَعَرَ عَلِيٌّ بِأَنَّ صَوْتَ الْماءِ الْمُتَساقِطِ، وَهَديلَ الْحَمامِ، هُما أَجْمَلُ ما سَمِعَهُ في حَياتِهِ.

قالَ لَهُ أَبوهُ: «بِمُجَرَّدِ وُصولِ أَيِّ رِسالَةٍ، يَنْبَغي لَنا إِبْلاغُ السُّلْطانِ فَوْرًا. فَإِذا كانَ نائِمًا، يَتَعَيَّنُ عَلَيْنا إيقاظُهُ».

سَأَلَهُ عَلِيٌّ: «أَلا يَغْضَبُ مِنْ جَرّاءِ ذلِكَ؟»

فَقالَ الْوالِدُ: «نَعَمْ، إِنَّهُ يَغْضَبُ كَثيرًا. لكِنَّهُ يَغْضَبُ أَكْثَرَ مِنْ ذلِكَ، إِنْ لَمْ نوقِظْهُ؛ لِأَنَّ لَهُ أَعْداءً كَثيرينَ، وَيَجِبُ أَنْ يَعْرِفَ مَتى يَتَسَلَّلونَ بِاتِّجاهِهِ. لِذا، يَتَعَيَّنُ إيقاظُ السُّلْطانِ بِتَمَهُّلٍ وَعِنايَةٍ شَديدَيْنِ، حَيْثُ يَعْزِفُ لَهُ خَدَمُهُ مَقْطوعاتٍ موسيقِيَّةً يُحِبُّها، وَيَهْمِسونَ في أُذُنَيْهِ كَلِماتِ الْمَديحِ وَالْإِطْراءِ؛ فيما يَقِفُ أَحَدُهُمْ قُرْبَ سَريرِهِ، جاهِزًا لِتَقْديمِ الْقَهْوَةِ السّاخِنَةِ. وَعِنْدَما يَسْتَيْقِظُ فِعْلًا، أَقْرَأُ لَهُ الرِّسالَةَ؛ آمِلًا أَلّا يَكونَ أَحَدٌ قَدْ أَخْطَأَ في أَيٍّ مِنْ كُلِّ تِلْكَ الْأُمورِ».

فَسَأَلَهُ عَلِيٌّ، حابِسًا أَنْفاسَهُ: «وَإِنْ أَخْطَأَ أَحَدٌ مِنْكُمْ؟»

«عِنْدَئِذٍ يا بُنَيَّ، يا قُرَّةَ عَيْني، يَكونُ مَصيرُ أَوَّلِ إِنْسانٍ يَقَعُ عَلَيْهِ نَظَرُ السُّلْطانِ رَمْيًا فَوْرِيًّا في زَنْزانَةِ الْمَنْسِيّينَ؛ الْعَميقَةِ الْمُظْلِمَةِ».





زَنْزانَةُ الْمَنْسِيّينَ؟ لَمْ يَسْمَعْ عَلِيٌّ مِنْ قَبْلُ بِمِثْلِ هذهِ التَّسْمِيَةِ، وَلَمْ يَفْهَمْ عَلاقَةَ الْمَنْسِيّينَ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الْغَريبَةِ! سَأَلَ أَباهُ عَنْ ذَلِكَ الْمُصْطَلَحِ، فَقالَ الْوالِدُ: «هذهِ يا وَلَدي، يا فِلْذَةَ كَبِدي، حُفْرَةٌ عَميقَةٌ فُتْحَتُها في السَّقْفِ؛ يُحْبَسُ فيها السُّجناءُ، فَيَنْساهُمُ النّاسُ مَعَ مُرورِ الزَّمَنِ. وَقَدْ أَخَذَ سُلْطانُنا فِكْرَةَ هذهِ الزَّنْزانَةِ مِنْ أولَئِكَ الإِفْرَنْجِ الْهَمَجِيّينَ الَّذينَ يَعيشونَ إِلى الشَّمالِ مِنْ هُنا، فَقَدْ كانَ مَلِكُهُمْ يَسْتَخْدِمُ مِثْلَ هذهِ الزَّنْزانَةِ لإِلْقاءِ أَعْدائِهِ فيها، فَيَهْبِطونَ وَيَهْبِطونَ؛ إِلى أَنْ يُسْمَعَ صَوْتُ ارْتِطامِهِمْ بِالْقَعْرِ.

سَأَلَهُ عَلِيٌّ بِصَوْتٍ خافِتٍ عَمّا جَرى لاحِقًا، فَقالَ أَبوه: «ما إِنْ سَمِعَ السُّلْطانُ بِخَبَرِ زَنْزانَةِ الْمَنْسِيّينَ، حَتّى فَكَّرَ في الأَعْداءِ وَالْمُعادينَ؛ وَأَمَرَ جُنودَهُ بِمُباشَرَةِ الْحَفْرِ في وَسَطِ الْقاعَةِ السُّلْطانِيَّةِ. أَمْضى جُنودُهُ في تَعْميقِ الْحُفْرَةِ أَرْبَعينَ نَهارًا وَلَيْلَةً، وَهُوَ يَأْمُرُ بِالْمَزيدِ. وَفي الْيَوْمِ الْحادي وَالأَرْبَعينَ...»





تَوَقَّفَ أَبو عَلِيٍّ عَنِ الْكَلامِ، فَوْرَ وُصولِ الْعُمّالِ وَالْخَدَمِ إِلى بُرْجِ الْحَمامِ؛ حامِلينَ سِلالًا مِنَ الفولِ الْأَخْضَرِ. وَبِسُرْعَةٍ تَوَزَّعوا في الْحُجُراتِ، وَأَخَذوا يَفْتَحونَ الْأَقْفاصَ وَيُنَظِّفونَها، وَيُغَيِّرونَ الْمِياهَ في الطّاساتِ، وَيَربطونَ نَباتَ الْخَرْدَلِ بِالْمَجاثِمِ؛ بِاعْتِبارِها مَأْكولاتٍ خَفيفَةٍ لِلْحَمائِمِ. وَعِنْدَها، قامَ أَبو عَلِيٍّ كَالْمُعْتادِ بِجَوْلَةٍ عَلى الْأَعْشاشِ؛ مُسَجِّلًا في مُجَلَّدِهِ كُلَّ زُغْلولٍ أَوْ جَوْزَلٍ جَديدٍ، وَمُهَنِّئًا أَبَوَيْهِ.

اِشْتَغَلَ عَلِيٌّ بِجُهْدٍ، مِثْلَ كُلِّ الْعامِلينَ في الْبُرْجِ. وَمَعَ انْتِهاءِ النَّهارِ، نامَ عَلى الْأَرْضِ مِنْ شِدَّةِ التَّعَبِ؛ فَعادَ بِهِ أَبوهُ إِلى الْبَيْتِ عَلى ظَهْرِ حِمارٍ.

كانَ عُثْمانُ واقِفًا أَمامَ الْبابِ، مُتَمَنْطِقًا كَالْعادَةِ بِسَيْفِهِ الْمُقَوَّسِ؛ وَأَفْرادُ الْأُسْرَةِ يُرَحِّبونَ بِهِما: «يا لَلْفَرْحَةِ! يا لَلسَّعادَةِ! لَقَدْ عُدْتُما إِلَيْنا!»

قَعَدَ عَلِيٌّ وَوالِدُهُ عَلى السَّجّادَةِ، فَصَبَّتْ زَيْنَبُ الْماءَ عَلى أَيْديهِما لِغَسْلِها؛ ثُمَّ جَفَّفَتْها لَهُما فاطِمَةُ بِمِنْشَفَتَيْنِ بَيْضاوَيْنِ ناعِمَتَيْنِ. وَعلى الْفَوْرِ، أَحْضَرَ عُثْمانُ طاوِلَةً طَويلَةً مُنْخَفِضَةً لِتَناوُلِ الْعَشاءِ. بَعْدَ أَنْ شَرِبا الْحَساءَ قُدِّمَ إِلَيْهِما طَبَقُ الطَّعامِ الرَّئيسيُّ: طائِرٌ يُسَمّى السُّمانى أَوِ السَّلْوى، مَحْشُوٌّ بِاللَّوْزِ وَالزَّبيبِ. وَكانَتِ التَّحْلِيَةُ في الْوَجْبَةِ أَقْراصًا صَغيرَةً رائِعَةً، مُحَلّاةً بِالْعَسَلِ.

قَبْلَ بُلوغِ عَلِيٍّ عامَهُ السّابِعَ، كانَ عَلَيْهِ الاِنْتِظارُ لِحينِ انْتِهاءِ والِدِهِ مِنْ تَناوُلِ عَشائِهِ لِيَتَعَشّى بَعْدَهُ. لكِنَّهُ الْآنَ في السّابِعَةِ، وَها هُوَ يَخْطو أولى الْخُطُواتِ نَحْوَ الرُّجولَةِ. فَقَدْ تَعَشّى مَعَ أَبيهِ، فيما كانَ الْآخَرونَ – عُثْمانُ وَالْأُمّانِ، والصِّغارُ الْأَرْبَعَةُ – يَنْتَظِرونَ دَوْرَهُمْ، لكِنَّهُمْ لَمْ يَكونوا مُنْزَعِجينَ (كَثيرًا)، لاِعْتِيادِهِمْ عَلى ذلِكَ.

سَأَلَ عَلِيٌّ والِدَهُ: «ما الَّذي حَدَثَ في الْيَوْمِ الْحادي وَالْأَرْبَعينَ؟»

فَأَجابَهُ الْأَبُ: «سَوْفَ أُخْبِرُكَ بِالْأَمْرِ غَدًا».

مَعَ انْشِقاقِ الْفَجْرِ، وَظُهورِ ما يَكْفي مِنَ النّورِ لِتَمْييزِ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ عَنِ الْأَبْيَضِ، كانَ عَلِيٌّ وَأَبوهُ مُسْتَعِدَّيْنِ لِلتَّوَجُّهِ إِلى الْقَصْرِ. وَكانَتْ فاطِمَةُ وَزَيْنَبُ واقِفَتَيْنِ قُرْبَ الْبابِ، وَمَعَهُما الْبِنْتانِ الصَّغيرَتانِ وَالصَّبِيّانِ الصَّغيرانِ لِوَداعِهِما.

قالَ الْوالِدُ لاِبْنِهِ: «قَرَّرْتُ أَلّا أُخْبِرَكَ عَنِ الْيَوْمِ الْحادي وَالْأَرْبَعينَ، إِلّا بَعْدَ ابْتِعادِنا عَنِ الْبَيْتِ. لَمْ أُرِدْ إِزْعاجَ زَيْنَبَ وَفاطِمَةَ، اللَّتَيْنِ يُقْلِقُهُما الْقَصْرُ إِلى حَدٍّ كَبيرٍ».

وَأَضافَ، قائِلًا: «في ذلِكَ الْيَوْمِ، شَقَّتْ مَعاوِلُ الْجُنودِ فُتْحَةً إِلى كَهْفٍ هائِلِ الْحَجْمِ تَحْتَ الْأَرْضِ؛ يُوازي في مِساحَتِهِ مَدينَةً بِأَكْمَلِها، جُدْرانُهُ مَبْنِيَّةٌ بِالْياقوتِ الْأَحْمَرِ، وَأَرْضُهُ مُغَطّاةٌ بِالذَّهَبِ. وَفي وَسَطِ الْكَهْفِ الْمُضاءِ بِالنّيرانِ وَالْمَشاعِلِ، مارِدٌ وَحْشِيٌّ رَهيبُ الْهامَةِ».



صَرَخَ عَلِيٌّ: «يا لَلْهَوْلِ!»

«لَمْ يَتَمَكَّنِ الْجُنودُ إِلّا مِنْ رُؤْيَةِ قِمَّةِ رَأْسِ الْمارِدِ، الْجالِسِ عَلى كَنَبَةٍ هائِلَةِ الْحَجْمِ؛ يَشْرَبُ مِنْ وِعاءٍ مَليءٍ بِالْحُمَمِ الْبُرْكانِيَّةِ الْحارِقَةِ. صَعِدَ الْجُنودُ مِنْ تِلْكَ الْحُفْرَةِ، بِسُرْعَةِ الْفِئْرانِ الْفارَّةِ مِنَ الْقِطَطِ. وَرَمى قائِدُهُمْ بِنَفْسِهِ عَلى الْأَرْضِ أَمامَ السُّلْطانِ، قائِلًا: «مَوْلايَ، يا أَعْظَمَ السَّلاطينِ! لَقَدْ حَفَرْنا فُتْحَةً إِلى بَيْتِ مارِدٍ وَحْشِيٍّ مُخيفٍ. اِسْمَحْ لَنا بِسَدِّها، قَبْلَ أَنْ يَتَنَبَّهَ إِلَيْنا!»

مَلَسَ السُّلْطانُ عَلى لِحْيَتِهِ الْكَثَّةِ السَّوْداءِ، وَقالَ: «مارِدٌ وَحْشِيٌّ مُخيفٌ؟»

فَأَجابَهُ الْقائِدُ، قائِلًا: «نَعَمْ، يا أَعْظَمَ السَّلاطينِ. إِنَّهُ بِحَجْمِ مِئَةِ فيلٍ؛ لَهُ قَرْنانِ أَسْوَدانِ مُرْعِبانِ، وَذِراعانِ طَويلَتانِ مُحَرْشَفَتانِ، وَمَخالِبُ أُرْجُوانِيَّةٌ ضَخْمَةٌ!»



سَأَلَ السُّلْطانُ قائِدَ فَريقِ الْحَفْرِ: «هَلْ سَقْفُ كَهْفِهِ بَعيدٌ جِدًّا عَنْ رَأْسِهِ، أَمْ قَريبٌ مِنْهُ؟»

فَأَجابَهُ: «بَعيدٌ جِدًّا، يا مَوْلايَ».

«وَهَلِ الضَّوْءُ في الْكَهْفِ بَرّاقٌ، أَمْ باهِتٌ؟»

فَقالَ الْقائِدُ الرّاكِعُ عَلى الْأَرْضِ: «باهِتٌ، يا مَوْلايَ».

أَضافَ أَبو عَلِيٍّ: «وَمُنْذُ ذلِكَ الْيَوْمِ صارَ السُّلطانُ يَرْمي في زَنْزانَةِ الْمَنْسِيّينَ كُلَّ مَنْ يَغْضَبُ عَلَيْهِمْ. لكِنَّ الْأَمْرَ الْأَسْوَأَ عَلى الْإِطْلاقِ...»

تَوَقَّفَ الْوالِدُ عَنِ الْكَلامِ، وَتَفَحَّصَ الشّارِعَ؛ لكِنَّهُ لَمْ يَرَ سِوى امْرَأَةٍ في نافِذَةٍ عالِيَةٍ تَنْفُضُ غِطاءَ الْمائِدَةِ؛ فيما كانَ عَلِيٌّ حابِسًا أَنْفاسَهُ لِمَعْرِفَةِ بَقِيَّةِ الْأَحْداثِ.

هَمَسَ الْوالِدُ في أُذُنِ عَلِيٍّ: «الْأَمْرُ الْأَسْوَأُ أَنَّ الْمَرْمِيَّ لا يُسْمَعُ صَوْتُ ارْتِطامِهِ بِالْأَرْضِ!»

شَهقَ عَلِيٌّ مِنَ الْعَجَبِ: «لا يُسْمَعُ صَوْتُ الْارْتِطامِ؟»

«لا يُسْمَعُ أَيُّ صَوْتٍ، عَلى الْإِطْلاقِ».

شَعَرَ عَلِيٌّ بِأَنَّ ذلِكَ أَمْرٌ مُريعٌ حَقًّا. فَسُقوطُ الْإِنْسانِ وَارْتِطامُهُ بِالْأَرْضِ، سَيِّئٌ أَصْلًا. لكِنَّ الْأَمْرَ أَسْوَأُ بِكَثيرٍ، عِنْدَما لا تَعْرِفُ ما الَّذي يَنْتَظِرُكَ؛ إِلّا عِنْدَ الْوُصولِ إِلى الْقَعْرِ. قَدْ تَقَعُ مُباشَرَةً بَيْنَ فَكَّيِ الْمارِدِ الْوَحْشِيِّ، فَيَعْلُكُكَ كَاللُّبانِ. وَلِمُجَرَّدِ تَخَيُّلِ ذاكَ الْمَصيرِ الْمُرْعِبِ، كادَ عَلِيٌّ يُصابُ بِالْغَثَيانِ.

قالَ الْأَبُ لِابْنِهِ الْمُنْدَهِشِ: «حانَ الْوَقْتُ لِلاهْتِمامِ بِالْحَمامِ».

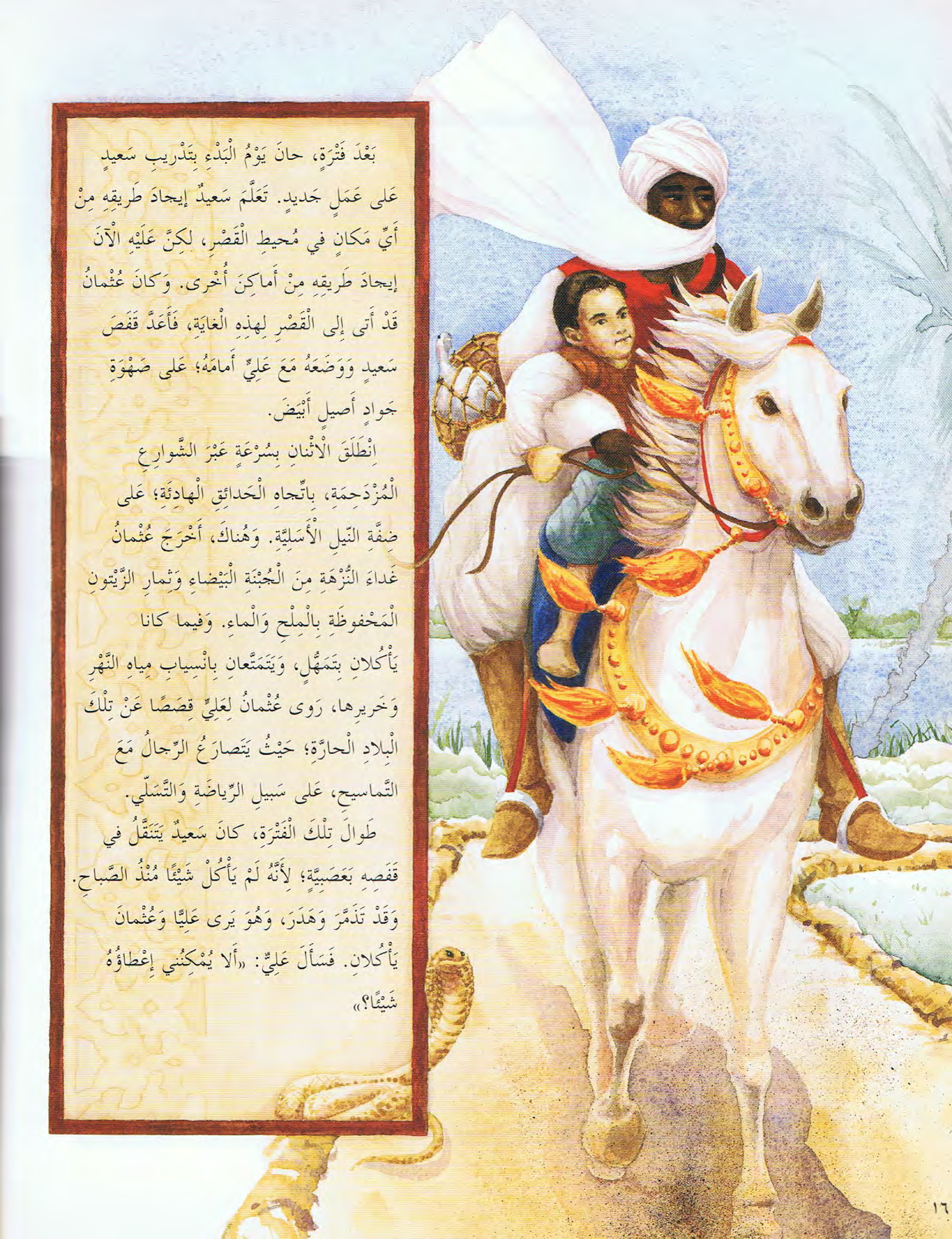
✵

بَعْدَ أَسابيعَ قَليلَةٍ، أَعْطى الْوالِدُ عَلِيًّا أَحَدَ الزَّغاليلِ الصَّغيرَةِ لِيُدَرِّبَهُ؛ قائِلًا: «اسْمَعْني جَيِّدًا يا بُنَيَّ الْعَزيزَ. هذا طائِرٌ عامِلٌ، يَجِبُ أَلّا يُدَلَّلَ. يَنْبَغي تَدْريبُهُ عَلى الْعَمَلِ الشّاقِ، وَنَقْلِ رَسائِلِ السُّلْطانِ. وَأَهَمُّ ما في الْأَمْرِ أَلّا تُطْعِمَهُ أَكْثَرَ مِمّا هُوَ مُقَرَّرٌ لَهُ. فَالْإِفْراطُ في إِطْعامِهِ يَجْعَلُهُ مُدَلَّلًا وَأَنانِيًّا».

فَقالَ عَلِيٌّ: «أَعِدُكَ بِأَلّا أَفْعَلَ ذلِكَ!»

سَعِدَ عَلِيٌّ بِالْفَرْخِ، فَسَمّاهُ سَعيدًا؛ وَدَرَّبَهُ عَلى الْمَجيءِ إِلَيْهِ، كُلَّما اسْتَدْعاهُ بِصَفْرَةٍ مُعَيَّنَةٍ. وَمَعَ مَزيدٍ مِنَ التَّدْريبِ، صارَ سَعيدٌ قادِرًا عَلى الطَّيَرانِ عائِدًا إِلى بُرْجِ الْحَمامِ، مِنْ أَيِّ مَكانٍ في مُحيطِ الْقَصْرِ. وَكُلَّما نَفَّذَ سَعيدٌ تَعْليماتِ عَلِيٍّ، حَصَلَ عَلى طَعامٍ إِضافِيٍّ تَشْجيعِيٍّ.

مُنْذُ الْيَوْمِ الْأَوَّلِ، اتَّضَحَ أَنَّ سَعيدًا طَمّاعٌ. كانَ يَأْكُلُ كُلَّ ما يُتاحُ لَهُ مِنَ الْفولِ الْأَخْضَرِ، لكِنَّهُ يُفَضِّلُ الْبُنْدُقَ وَالْبَلَحَ وَالْكَعْكَ الْمُعَسَّلَ. وَدَأَبَ عَلِيٌّ عَلى إِحْضارِ حَلْوِيّاتِهِ مِنَ الْبَيْتِ، وَإِعْطائِها سَعيدًا، الَّذي يَلْتَهِمُها إِلى آخِرِ قِطْعَةٍ مِنْها.



بَعْدَ فَتْرَةٍ، حانَ يَوْمُ الْبَدْءِ بِتَدْريبِ سَعيدٍ على عَمَلٍ جَديدٍ. تَعَلَّمَ سَعيدٌ إيجادَ طَريقِهِ مِنْ أَيِّ مَكانٍ في مُحيطِ الْقَصْرِ، لكِنَّ عَلَيْهِ الْآنَ إيجادَ طَريقِهِ مِنْ أَماكِنَ أُخْرى. وَكانَ عُثْمانُ قَدْ أَتى إِلى الْقَصْرِ لِهذِهِ الْغايَةِ، فَأَعَدَّ قَفَصَ سَعيدٍ وَوَضَعَهُ مَعَ عَلِيٍّ أَمامَهُ؛ عَلى صَهْوَةِ جَوادٍ أَصيلٍ أَبْيَضَ.

انْطَلَقَ الْاثْنانِ بِسُرْعَةٍ عَبْرَ الشَّوارِعِ الْمُزْدَحِمَةِ، بِاتِّجاهِ الْحَدائِقِ الْهادِئَةِ؛ عَلى ضِفَّةِ النّيلِ الْأَسَلِيَّةِ. وَهُناكَ، أَخْرَجَ عُثْمانُ غَداءَ النُّزْهَةِ مِنَ الْجُبْنَةِ الْبَيْضاءِ وَثِمارِ الزَّيْتونِ الْمَحْفوظَةِ بِالْمِلْحِ وَالْماءِ. وَفيما كانا يَأْكُلانِ بِتَمَهُّلٍ، وَيَتَمَتَّعانِ بِانْسِيابِ مِياهِ النَّهْرِ وَخَريرِها، رَوى عُثْمانُ لِعَلِيٍّ قِصَصًا عَنْ تِلْكَ الْبِلادِ الْحارَّةِ؛ حَيْثُ يَتَصارَعُ الرِّجالُ مَعَ التَّماسيحِ، عَلى سَبيلِ الرِّياضَةِ وَالتَّسَلّي.

طَوالَ تِلْكَ الْفَتْرَةِ، كانَ سَعيدٌ يَتَنَقَّلُ في قَفَصِهِ بِعَصَبِيَّةٍ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَأْكُلْ شَيْئًا مُنْذُ الصَّباحِ. وَقَدْ تَذَمَّرَ وَهَدَرَ، وَهُوَ يَرى عَلِيًّا وَعُثْمانَ يَأْكُلانِ. فَسَأَلَ عَلِيٌّ: «أَلا يُمْكِنُني إِعْطاؤُهُ شَيْئًا؟»



أَجابَهُ عُثْمانُ: «لا، قَطْعًا. فَكُلَّما ازْدادَ جوعًا، ازْدادَتْ سُرْعَةُ طَيَرانِهِ عائِدًا إِلى بُرْجِ الْحَمامِ».

أَنْهى عَلِيٌّ غَداءَهُ بِواحِدَةٍ مِنْ تِلْكَ الْكَعْكاتِ الصَّغيرَةِ اللَّذيذَةِ الْمُحَلّاةِ بِالْعَسَلِ، وَلَعِقَ ما عَلِقَ مِنْها بِأَصابِعِهِ. وَطَوالَ هٰذِهِ الْفَتْرَةِ، كانَ سَعيدٌ يَذْرَعُ أَرْضَ قَفَصِهِ مُتَوَتِّرًا، مُتَذَمِّرًا.

أَخيرًا، أَوْمَأَ عُثْمانُ بِرَأْسِهِ مُوافِقًا؛ فَفَتَحَ عَلِيٌّ بابَ الْقَفَصِ. خَرَجَ سَعيدٌ مُتَرَنِّحًا، مُتَثاقِلًا؛ فَقالَ عُثْمانُ هازِئًا: «هٰذا أَسْمَنُ الْحَمامِ الَّذي رَأَيْتُهُ في حَياتي. هَلْ أَنْتَ مُتَأَكِّدٌ مِنْ أَنَّكَ لَمْ تُطْعِمْهُ أَكْثَرَ مِنْ حاجَتِهِ؟ فَالطّائِرُ الَّذي يُفْرِطُ في الْأَكْلِ، يَتَعَوَّدُ الْأَنانِيَّةَ وَالْكَسَلَ».

فَكَّرَ عَلِيٌّ في كُلِّ تِلْكَ التَّحْلِياتِ الَّتي كانَ يُوَفِّرُها لِسَعيدٍ، وَقالَ: «آمُلُ أَنَّني لَمْ أَفْعَلْ ذٰلِكَ!»

تَنَقَّلَ سَعيدٌ مُتَوَتِّرًا في الْمَكانِ الَّذي جَلَسَ فيهِ عَلِيٌّ وَعُثْمانُ لِيَتَناوَلا طَعامَهُما، لٰكِنَّهُ لَمْ يَجِدْ أَيَّ فُتاتٍ عَلى الْإِطْلاقِ. فَتَذَمَّرَ بِصَمْتٍ. عِنْدَها، قالَ عُثْمانُ لِعَلِيٍّ: «ارْفَعْهُ، وَارْمِ بِهِ في الْهَواءِ».



رَفَعَ عَلِيٌّ سَعيدًا عَنِ الْأَرْضِ، وَقالَ لَهُ هامِسًا؛ فيما كانَ يُمَسِّدُ ريشَهُ: «إِنَّكَ سَتَنْجَحُ في الرُّجوعِ». ثُمَّ اعْتَلى بِهِ صَخْرَةً، وَرَماهُ عالِيًا. أَطْلَقَ سَعيدٌ صَيْحَةَ فَزَعٍ حادَّةً، وَبَسَطَ جَناحَيْهِ فَوْرًا. اِرْتَفَعَ، وَحَلَّقَ في الْجَوِّ عالِيًا، لِكَيْ يَتَمَكَّنَ مِنْ رُؤْيَةِ الْقَصْرِ. فَحَبَسَ عَلِيٌّ أَنْفاسَهُ، ثُمَّ صَرَخَ بِسَعادَةٍ: «لَقَدْ نَجَحَ!»

عادَ عُثْمانُ وَعَلِيٌّ عَلى مَتْنِ الْحِصانِ السَّريعِ، عَبْرَ الشَّوارِعِ الْمُزْدَحِمَةِ؛ مُنْطَلِقَيْنِ بِمُحاذاةِ حَميرٍ مُحَمَّلَةٍ بِالْجِرارِ، وَصَيّادي أَسْماكٍ مُحَمَّلينَ بِالشِّباكِ. وَفي الطَّريقِ كادا يَقْلِبانِ مِنَصَّةً لِلْفاكِهَةِ، لكِنَّ عُثْمانَ خَيّالٌ بارِعٌ لِلْغايَةِ؛ فَلَمْ يُصِبِ الْحِصانُ شَيْئًا في طَريقِهِ.

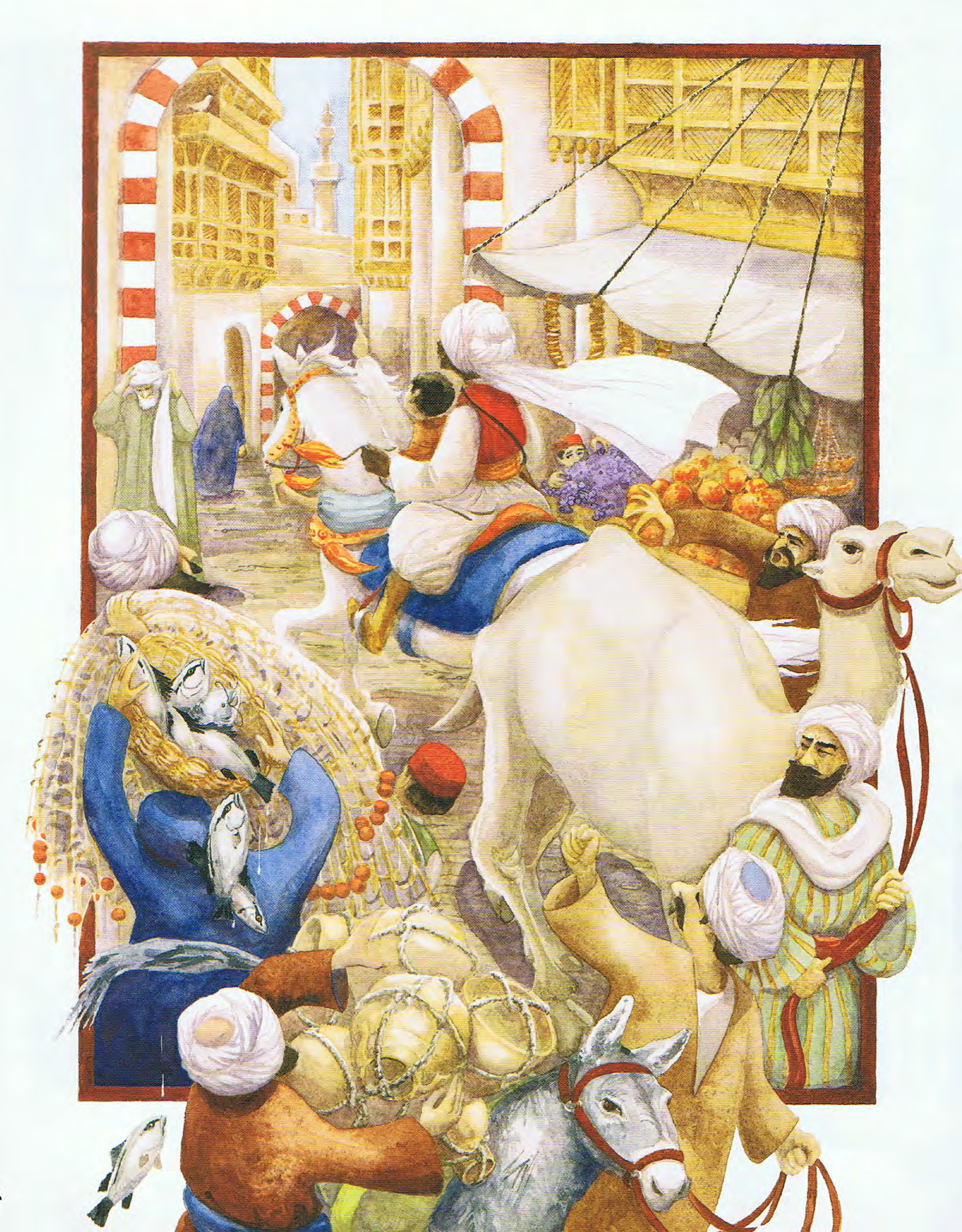
طَوالَ ذلِكَ الْوَقْتِ، كانَ سَعيدٌ يَطيرُ بِبُطْءٍ عَلى ارْتِفاعٍ مُنْخَفِضٍ؛ لِأَنَّهُ سَمينٌ جِدًّا. وَقَدْ حَطَّ مَرّاتٍ عَديدَةً عَلى أَسْطُحِ الْبُيوتِ، طَلَبًا لِلرّاحَةِ. فَقالَ عُثْمانُ: «يَجِبُ أَلّا يَفْعَلَ ذلِكَ أَبَدًا!»

لَمْ يُجِبْ عَلِيٌّ، لكِنَّهُ تَعَهَّدَ في سِرِّهِ بِفَرْضِ الْحِمْيَةِ عَلى سَعيدٍ. فَتِلْكَ الْاسْتِراحاتُ الْمُتَعَدِّدَةُ، لَمْ تَكُنْ إِلّا بِسَبَبِ الْأَكْلِ الْمُفْرِطِ.

أَخيرًا، وَصَلَ سَعيدٌ إِلى الْقَصْرِ. غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَتَّجِهْ نَحْوَ بُرْجِ الْحَمامِ، بَلِ انْطَلَقَ في اتِّجاهٍ مُعاكِسٍ. اِنْزَلَقَ عَلِيٌّ مِنْ عَلى ظَهْرِ الْفَرَسِ، وَرَكَضَ وَراءَ سَعيدٍ في الْباحاتِ؛ لِلْإِمْساكِ بِهِ.

ناداهُ بِاسْمِهِ وَصَفَرَ لَهُ مُلَوِّحًا بِذِراعَيْهِ، لكِنَّ الطّائِرَ لَمْ يُعِرْهُ أَيَّ اهْتِمامٍ؛ بَلِ انْدَفَعَ إِلى الدّاخِلِ عَبْرَ بابٍ يَحْرُسُهُ جُنودٌ أَشِدّاءُ. هُرِعَ عَلِيٌّ وَراءَهُ، فَصَرَخَ بِهِ الْجُنودُ وَبَدَأوا يُطارِدونَهُ؛ مُنادينَ زُمَلاءَهُمْ لِلْمُساعَدَةِ. وَفي لَحَظاتٍ، كانَ خَمْسونَ رَجُلًا يَرْكُضونَ في الْقاعاتِ؛ صارِخينَ، مُهَدِّدينَ.

لَمْ يَقِفْ عَلِيٌّ؛ لِأَنَّهُ كانَ يُريدُ الْإِمْساكَ بِسَعيدٍ قَبْلَ أَنْ يَتَعَرَّضَ الطّائِرُ لِأَيِّ مُشْكِلَةٍ. اِخْتَرَقَ آخِرَ الْأَبْوابِ عَدْوًا، فَانْزَلَقَ إِلى مُنْتَصَفِ الْحُجْرَةِ قَبْلَ التَّوَقُّفِ.







كانَتْ حُجْرَةً مُسْتَديرَةً واسِعَةً؛ ذاتَ جُدْرانٍ زَهْرِيَّةٍ جَميلَةٍ، وَسَتائِرَ خَضْراءَ رائِعَةٍ. تَتَدَلّى مِنْ سَقْفِها الْفَسيحِ عَشَراتُ الْمَصابيحِ، وَفي وَسَطِ أَرْضِها حُفْرَةٌ ضَخْمَةٌ؛ لا بُدَّ أَنَّها زَنْزانَةُ الْمَنْسِيّينَ.

عَلى الْجانِبِ الْآخَرِ، كانَ السُّلْطانُ جالِسًا عَلى عَرْشٍ مِنَ الذَّهَبِ؛ يَأْكُلُ الْكَرَزَ مِنْ سُلْطانِيَّةٍ تَحْمِلُها جارِيَةٌ حَسْناءُ. وَفَجْأَةً، انْقَضَّ سَعيدٌ عَلى الْقَصْعَةِ، وَخَطَفَ كَرْزَةً. صاحَتِ الْجارِيَةُ فَزَعًا، وَرَمَتِ الْقَصْعَةَ في الْهَواءِ؛ فَتَدَحْرَجَ الْكَرَزُ في كُلِّ الْاتِّجاهاتِ. في تِلْكَ اللَّحْظَةِ، كانَ الْحُرّاسُ داخِلينَ بِسُرْعَةٍ؛ فَداسوا عَلى الْكَرَزِ، وَزَلَّتْ أَقْدامُهُمْ. انْزَلَقوا مُتَرَنِّحينَ، مُتمايِلينَ؛ كَالثّيرانِ مُتَخاوِرينَ، وَبِبَعْضِهِمْ بَعْضًا مُتَمَسِّكينَ؛ إِلى أَنْ تَمَكَّنوا مِنَ التَّوَقُّفِ... أَمامَ فُتْحَةِ الزَّنْزانَةِ.

حَطَّ سَعيدٌ عَلى الْأَرْضِ، وَبَدَأَ في أَكْلِ الْكَرَزِ الْمَهْروسِ حَبَّةً تِلْوَ الْأُخْرى، وَالْجَميعُ يَنْظُرونَ إِلَيْهِ صامِتينَ، خائِفينَ، مُتَشائِمينَ، فيما الصَّوْتُ الْوَحيدُ الْمَسْموعُ هُوَ النَّقْرُ!

غَضِبَ السُّلْطانُ، وَامْتَقَعَ لَوْنُهُ، وَبَدَتْ عَيْناهُ كَجَمْرَتَيْنِ حَمْراوَيْنِ يَتَطايَرُ مِنْهُما الشَّرَرُ، وَصَرَخَ قائِلًا: «هاتوا هذا الطّائِرَ، أُريدُ أَنْ أَرى إِحْدى رِجْلَيْهِ!»

قَفَزَ الْحُرّاسُ، وَأَمْسَكوا بِسَعيدٍ، فيما كانَ عَلِيٌّ مُتَسَمِّرًا في مَكانِهِ يَرْتَجِفُ خَوْفًا وَرُعْبًا، فَلَقَدْ وُسِمَ الْحَمامُ الزّاجِلُ عَلى أَرْجُلِهِ بِرَمْزٍ سُلْطانِيٍّ صَغيرٍ، يُثْبِتُ أَنَّهُ حَمامُ الْقَصْرِ. وَفَوْرَ رُؤْيَةِ ذلِكَ الْوَسْمِ، سَيَأْمُرُ السُّلْطانُ بِإِلْقاءِ والِدِ عَلِيٍّ في الزِّنْزانَةِ؛ فَيَهْبِطُ الْوالِدُ... وَيَهْبِطُ، إِلى أَنْ يَقَعَ بَيْنَ فَكَّيِ الْمارِدِ الْوَحْشِيِّ الَّذي سَيَتَلَذَّذُ بِأَكْلِهِ كَقِطْعَةٍ مِنَ الْحَلْوى!

صاحَ السُّلْطانُ: «أُريدُ الْقَيِّمَ عَلى الْحَمامِ، فَوْرًا!»

هُرِعَ الْحُرّاسُ إِلى الْخارِجِ، وَعادوا بَعْدَ لَحَظاتٍ بِوالِدِ عَلِيٍّ. دَخَلَ الرَّجُلُ بِهُدوءٍ كُلِّيٍّ، أَثارَ إِعْجابَ عَلِيٍّ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُبْدِ أَيَّ خَوْفٍ عَلى الْإِطْلاقِ.

اِنْحَنى أَبو عَلِيٍّ بِاحْتِرامٍ، وَقالَ: «أَنا رَهْنُ إِشارَتِكَ، يا عِمادَ الدُّنْيا وَالدّينِ».

«كُنْتُ أَتَمَتَّعُ بِآخِرِ قَصْعَةٍ مِنَ الْكَرَزِ، عِنْدَما أَوْقَعَها طائِرُكَ كُلَّها عَلى الْأَرْضِ. وَلَنْ أَجِدَ أَيَّ كَرَزٍ الْآنَ في أَيِّ مَكانٍ مِنْ مِصْرَ، لِأَنَّهُ يُرْسَلُ إِلَيَّ بِأَسْرَعِ السُّفُنِ؛ بَعْدَ اقْتِطافِهِ مِنَ الْجِبالِ السّورِيَّةِ الْمَكْسُوَّةِ بِالثُّلوجِ».

قالَ أَبو عَلِيٍّ بِهُدوءٍ: «أَتَقَدَّمُ إِلَيْكَ يا مَوْلايَ، بِأَخْلَصِ الْاعْتِذارِ عَنْ غَباءِ هذا الزُّغْلولِ. سَأُحْضِرُ لَكَ فَوْرًا ما تُحِبُّهُ مِنَ الْعِنَبِ السُّكَّرِيِّ وَالتّينِ».



زَعَقَ السُّلْطانُ بِصَوْتٍ هادِرٍ: «لا! لا! الْكَرَزُ، وَلا شَيْءَ سِوى الْكَرَزِ! وَأُريدُهُ الْآنَ، وَلَيْسَ غَدًا!» وَبِغَضَبٍ، رَمى بِعِمامَتِهِ أَرْضًا وَبَدَأَ يَقْفِزُ عَلَيْها.

بَدا السُّلْطانُ لِعَلِيٍّ مِثْلَ إِخْوَتِهِ في سَوْراتِ غَضَبِهِمِ الطُّفوليَّةِ؛ فَتَوَقَّعَ أَنْ تَهْدَأَ سَوْرَةُ غَضَبِهِ، بِمُجَرَّدِ حُصولِهِ عَلى كَرَزِهِ. غَيْرَ أَنَّ السُّلْطانَ أَشارَ بِيَدِهِ إِلى أَبي عَلِيٍّ، صائِحًا بِحُرّاسِهِ: «ارْموا بِهِ في الزِّنْزانَةِ!»

صَرَخَ عَلِيٌّ، راكِضًا نَحْوَهُ: «لا، أَرْجوكَ؛ أَنا الْمُخْطِئُ وَلَيْسَ والِدي! أَنا مَنْ دَلَّلَ الْفَرْخَ وَأَفْسَدَهُ، بِسَبَبِ جَهْلي!» وَارْتَمى عَلى الْأَرْضِ أَمامَ السُّلْطانِ، شاعِرًا بِمَدى صِغَرِهِ وَضَعْفِهِ.

فَقالَ الْأَبُ مُسْتَعْطِفًا: «إِنَّ ابْني ما زالَ طِفْلًا، يا مَوْلايَ!»






صاحَ بِهِ السُّلْطانُ: «اخْرَسْ!» وَجَلَسَ عَلى عَرْشِهِ، مُمَرِّرًا أَصابِعَهُ في لِحْيَتِهِ السَّوْداءِ الْكَثَّةِ. رَفَعَ عَلِيٌّ رَأْسَهُ وَنَظَرَ إِلى احْمِرارِ الْغَضَبِ في عَيْنَيْ السُّلْطانِ، الشَّبيهَتَيْنِ بِفَحْمَةِ اللَّيْلِ.

ابْتَسَمَ السُّلْطانُ، لكِنَّ ابْتِسامَتَهُ الْقاسِيَةَ لَمْ تُشْعِرْ عَلِيًّا بِأَيِّ ارْتِياحٍ. وَقالَ لِأَبي عَلِيٍّ: «سَوْفَ أُعْطيكَ فُرْصَةً واحِدَةً. إِذا تَمَكَّنَ هذا الصَّبِيُّ مِنَ الْإِتْيانِ بِقَصْعَةٍ فيها سِتُّمِئَةِ كَرْزَةٍ، خِلالَ أَيّامٍ ثَلاثَةٍ، فَسَوْفَ أُسامِحُكَ. وَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ، فَمَصيرُكَ زَنْزانَةُ الْمَنْسِيّينَ!»

تَرَجّاهُ أَبو عَلِيٍّ، قائِلًا: «مَوْلايَ، يا أَعْظَمَ سَلاطينِ الزَّمانِ، هذا أَمْرٌ يَفوقُ قُدْرَةَ الْإِنْسانِ. فَالْكَرَزُ يَأْتي مِنْ جِبالِ الشّامِ الْمَكْسُوَّةِ بِالثَّلْجِ، وَيَسْتَغْرِقُ نَقْلُهُ بِالسُّفُنِ السَّريعَةِ أُسْبوعَيْنِ!»

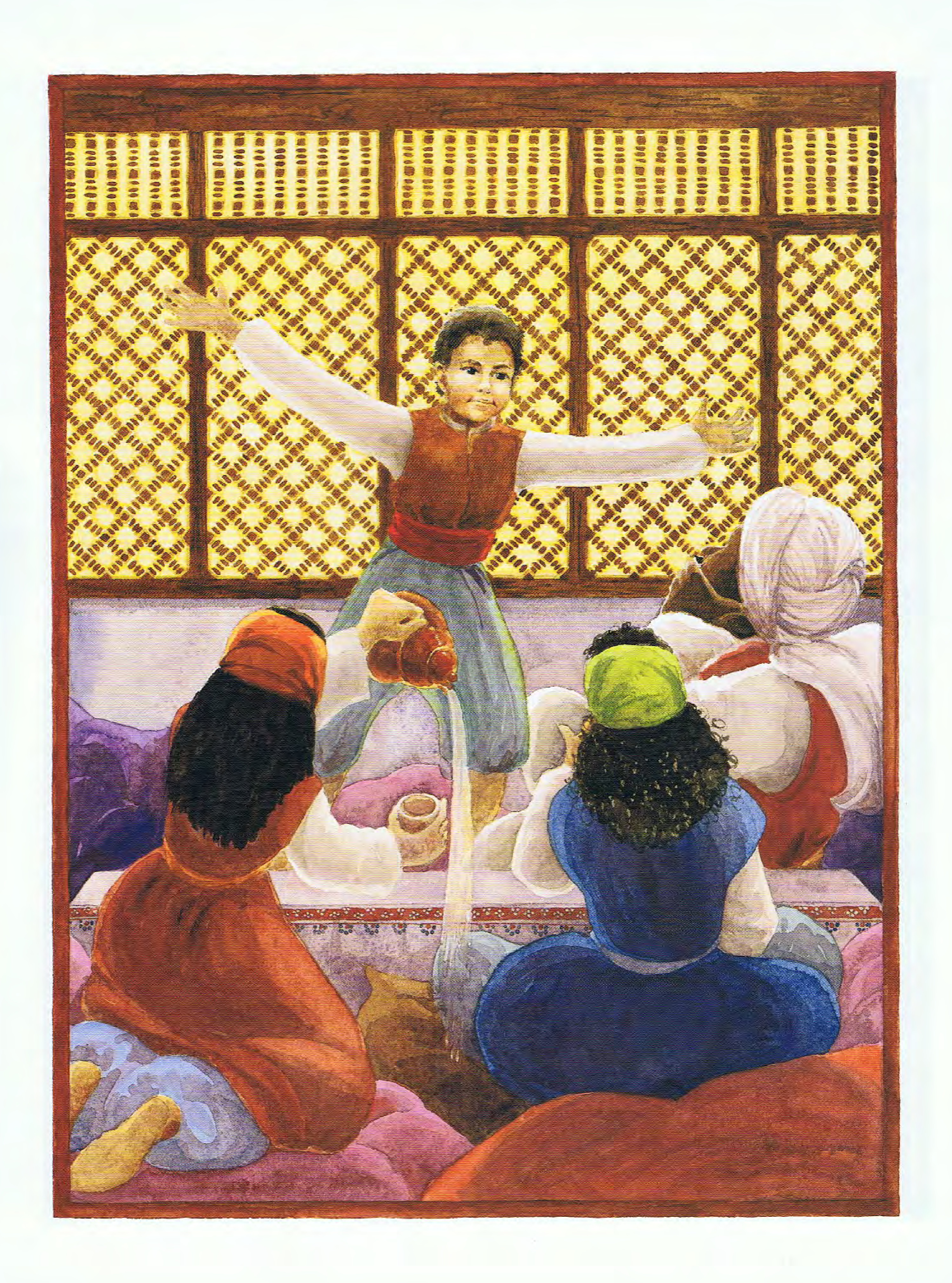
قالَ السُّلْطانُ: «هذِهِ مُشْكِلَتُكَ أَنْتَ! سَتَبْقى الْآنَ في حَبْسٍ انْفِرادِيٍّ، حَتّى مَغيبِ الشَّمْسِ في الْيَوْمِ الثّالِثِ». ثُمَّ تَطَلَّعَ إِلى عَلِيٍّ، وَقالَ مُنَغِّمًا: «هَيّا، يا صَبِيُّ، هَيّا! هاتِ الْكَرَزَ الْمَطْلوبَ، وَانْقِذْ أَباكَ الْمَحْبوبَ».

لَمْ يَتَرَدَّدْ عَلِيٌّ لَحْظَةً، بَلْ رَكَضَ بِأَسْرَعِ ما يُمْكِنُهُ عائِدًا إِلى بُرْجِ الْحَمامِ؛ حَيْثُ رَأى سَعيدًا، يَحْشو نَفْسَهُ بِكُلِّ ما يَجِدُهُ مِنَ الْفولِ الْأَخْضَرِ. فَقالَ لَهُ: «يا لَكَ مِنْ طائِرٍ رَهيبٍ. أَتَمَنّى أَنْ تَخْتَنِقَ بِأَكْلِكَ!»

وَجَدَ عَلِيٌّ عُثْمانَ وَأَخْبَرَهُ بِما حَدَثَ في الْقَصْرِ، قائِلًا: «عَلَيْنا أَنْ نَذْهَبَ إِلى كُلِّ سوقٍ في الْقاهِرَةِ لِشِراءِ الْكَرَزِ الْمَطْلوبِ». فَأَجابَهُ عُثْمانُ: «لا يوجَدُ أَيُّ كَرَزٍ الْآنَ في الْأَسْواقِ، لِأَنَّهُ يُقْطَفُ في الْجِبالِ السّورِيَّةِ وَيُرْسَلُ بِالسُّفُـ...»

قاطَعَهُ عَلِيٌّ، صائِحًا: «عَلَيْنا الْقِيامُ بِعَمَلٍ ما. يَجِبُ أَنْ نَجِدَ الْكَرَزَ، وَإِلّا فَالسُّلْطانُ سَيَرْمي بِأَبي في زَنْزانَةِ الْقَصْرِ. وَهُناكَ، سَيَأْكُلُهُ الْمارِدُ الْوَحْشِيُّ كَقِطْعَةٍ مِنَ الْحَلْوى!»

فَقالَ لَهُ عُثْمانُ: «يَنْبَغي لَنا الذَهابُ إِلى الْبَيْتِ فَوْرًا. فَزَيْنَبُ وَفاطِمَةُ زاخِرَتانِ بِالْحِكَمِ الْعَمَلِيَّةِ، مِثْلَما الرُّمّانَةُ زاخِرَةٌ بِالْحُبوبِ؛ وَقَدْ تَخْرُجانِ بِفِكْرَةٍ جَيِّدَةٍ».





ذَهَبَ عَلِيٌّ إِلى الْبَيْتِ خائِفًا؛ لِأَنَّهُ يُدْرِكُ أَنَّ زَيْنَبَ وَفاطِمَةَ سَوْفَ تَبْكِيانِ وَتُوَلْوِلانِ. لكِنَّهُ فوجِئَ كَثيرًا، بَعْدَ إِطْلاعِهِما عَلى الْخَبَرِ، بِأَنَّهُما أَرْسَلَتا الصِّغارَ لِيَلْعَبوا في الْخارِجِ؛ وَبَدَأَتا تُعِدّانِ الشّايَ الْمُنَكَّهَ بِالنَّعْناعِ.

قالَ لَهُما عَلِيٌّ: «اعْتَقَدْتُ أَنَّكُما سَوْفَ تَتَكَدَّرانِ». فَأَجابَتْهُ زَيْنَبُ: «إِنَّنا نَقْلَقُ قَبْلَ حُدوثِ شَيْءٍ ما، لكِنْ مِنَ الْغَباءِ أَنْ نَشْعُرَ بِالْقَلَقِ بَعْدَ حُدوثِهِ».

بَعْدَ الْجُلوسِ إِلى الطّاوِلَةِ الْمُنْخَفِضَةِ، وَالْبَدْءِ بِشُرْبِ الشّايِ الْمُطَيَّبِ بِالنَّعْناعِ، قالَتْ زَيْنَبُ: «حانَ الْوَقْتُ الْآنَ لِوَضْعِ خُطَّةٍ».

تَساءَلَتْ فاطِمَةُ: «لِمَ لا نَبْتاعُ بَعْضَ الْعِنَبِ، وَنُحَمِّرُهُ جَيِّدًا بِدِهانِ التَّلْوينِ؟»

فَأَجابَها عُثْمانُ فَوْرًا: «كُلُّ الدِّهاناتِ سامَّةٌ».

رَدَّتْ فاطِمَةُ بِسُرْعَةٍ: «لَنْ يَأْسَفَ أَحَدٌ لِتَسَمُّمِهِ!»

فَنَبَّهَتْها زَيْنَبُ إِلى أَنَّ السُّلْطانَ لَنْ يَنْخَدِعَ بِذلِكَ لِأَنَّهُ لَيْسَ غَبِيًّا.

فيما كانَ الْكِبارُ الثَّلاثَةُ يَتَبادَلونَ الْآراءَ بَدَأَتْ فِكْرَةٌ تَتَبَلْوَرُ في رَأْسِ عَلِيٍّ. كانَتْ فِكْرَةً ذَكِيَّةً، مُذْهِلَةً إِلى دَرَجَةٍ كادَ أَلّا يُصَدِّقَ أَنَّهُ اهْتَدى إِلَيْها بِمُفْرَدِهِ. وَلكِنْ هَلْ سَتَنْجَحُ هذِهِ الْفِكْرَةُ!

أَطْلَعَ عَلِيٌّ زَيْنَبَ وَفاطِمَةَ وَعُثْمانَ عَلى خُطَّتِهِ، فَابْتَسَموا إِعْجابًا وَتَقْديرًا؛ وَأَثْنَوْا عَلى ذَكائِهِ. وَقالَ عُثْمانُ لِعَلِيٍّ: «هَيّا بِنا إِلى الْقَصْرِ، لِنَبْدَأَ الْعَمَلَ فَوْرًا».



قَفَزَ عُثْمانُ مَعَ عَلِيٍّ إلى ظَهْرِ الْجَوادِ الأَصيلِ، وَأَطْلَقَ لَهُ الْعِنانَ عَبْرَ الشَّوارِعِ الْمُزْدَحِمَةِ؛ يُسابِقُ الرّيحَ بِاتِّجاهِ بُرْجِ الْحَمامِ. وَهُناكَ، كَتَبَ عُثْمانُ الرِّسالَةَ بِأَحْرُفٍ صَغيرَةٍ عَلى قُصاصَةٍ مِنَ الْوَرَقِ؛ ثُمَّ رَبَطَ الرِّسالَةَ تَحْتَ جَناحِ حَمامَةٍ.

بَعَثَ عَلِيٌّ وَعُثْمانُ بِعَشْرِ رَسائِلَ تَحْمِلُ الْكَلِماتِ نَفْسَها؛ لِيَضْمَنا وُصولَها في حالِ ضاعَ بَعْضُ الْحَمامِ أَوْ أَكَلَتْهُ الطُّيورُ الْجارِحَةُ. ثُمَّ جَلَسَ الاثْنانِ يَنْتَظِرانِ... وَيَنْتَظِرانِ.

أَمْضَيا ثَلاثَةَ أَيّامٍ في بُرْجِ الْحَمامِ الَّذي لَمْ يُغادِراهُ لَحْظَةً، خِشْيَةَ حُصولِ أَيِّ مُشْكِلَةٍ. وَبَعْدَ ظُهْرِ الْيَوْمِ الثّالِثِ، مَعَ اسْتِطالَةِ الظِّلالِ عَلى الأَرْضِ، سَمِعَ عَلِيٌّ صَوْتَ خَفْقَةٍ وَرَفْرَفَةٍ في الْهَواءِ.

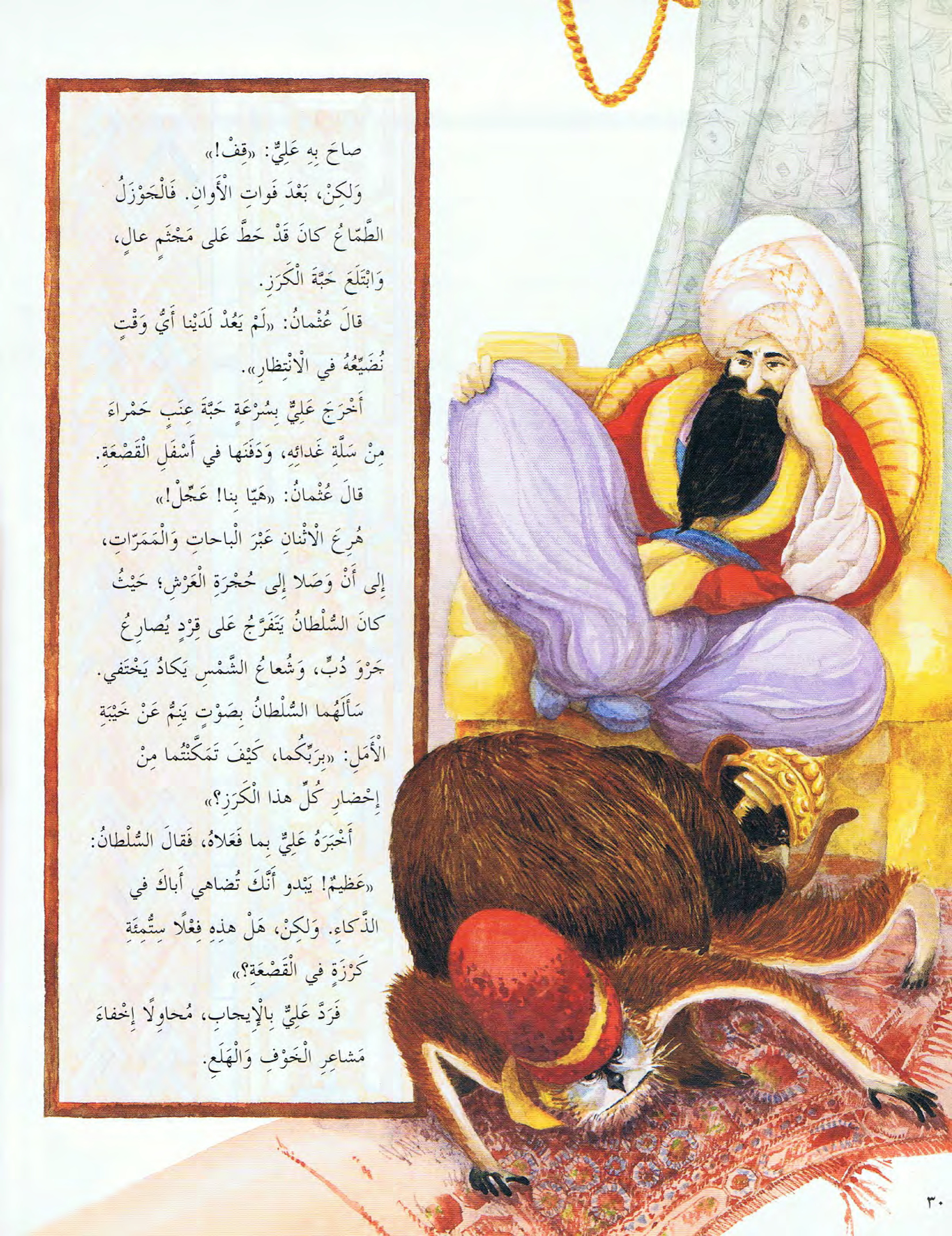
وَفي لَحْظَةٍ، حَطَّتْ سَحابَةٌ مِنَ الْحَمامِ الزّاجِلِ حَوْلَ الْفِسْقِيَّةِ في باحَةِ الْقَصْرِ. هَدَلَتْ تِلْكَ الطُّيورُ، وَعَلى الأَرْضِ تَهادَتْ. ثُمَّ تَسابَقَتْ إلى النّافورَةِ لإِرْواءِ عَطَشِها الشَّديدِ، بَعْدَ تِلْكَ الرِّحْلَةِ الطَّويلَةِ فَوْقَ الصَّحْراءِ.

هَتَفَ عَلِيٌّ، مُتَراقِصًا بِفَرَحٍ: «مَرْحى! لَقَدْ نَجَحْنا!» فَقَدْ وُجِّهَتِ الرِّسالَةُ إلى مُزارِعي الْكَرَزِ في الْجِبالِ السّورِيَّةِ؛ وَها قَدْ أَرْسَلوا سِرْبًا مِنْ ثَلاثِمِئَةِ ذَكَرِ حَمامٍ، رُبِطَ بِرِجْلَيْ كُلٍّ مِنْها كيسانِ حَريرِيّانِ صَغيرانِ؛ في كُلِّ واحِدٍ كَرَزَةٌ.

أَحْضَرَ عُثْمانُ سُلْطانِيَّةً نُحاسِيَّةً، وَفَكَّ مَعَ عَلِيٍّ الأَكْياسَ الصَّغيرَةَ، وَأَفْرَغا سِتَّمِئَةَ حَبَّةٍ في الْقَصْعَةِ، فَقَدْ كانَ عَلَيْهِما تَقْديمُها إلى السُّلْطانِ قَبْلَ غِيابِ الشَّمْسِ. رَفَعَ عُثْمانُ الْقَصْعَةَ، وَسارَ عَلِيٌّ أَمامَهُ لِفَتْحِ الْبابِ. فَجْأَةً، وَبِمِثْلِ لَمْحِ الْبَصَرِ، ظَهَرَ سَعيدٌ وَانْقَضَّ عَلى السُّلْطانِيَّةِ؛ مُخْتَطِفًا حَبَّةً مِنَ الْكَرَزِ.







صاحَ بِهِ عَلِيٌّ: «قِفْ!»

وَلٰكِنْ، بَعْدَ فَواتِ الْأَوانِ. فَالْجَوْزَلُ الطَّمّاعُ كانَ قَدْ حَطَّ عَلى مَجْثَمٍ عالٍ، وَابْتَلَعَ حَبَّةَ الْكَرَزِ.

قالَ عُثْمانُ: «لَمْ يَعُدْ لَدَيْنا أَيُّ وَقْتٍ نُضَيِّعُهُ في الْانْتِظارِ».

أَخْرَجَ عَلِيٌّ بِسُرْعَةٍ حَبَّةَ عِنَبٍ حَمْراءَ مِنْ سَلَّةِ غَدائِهِ، وَدَفَنَها في أَسْفَلِ الْقَصْعَةِ.

قالَ عُثْمانُ: «هَيّا بِنا! عَجِّلْ!»

هُرِعَ الْاثْنانِ عَبْرَ الْباحاتِ وَالْمَمَرّاتِ، إِلى أَنْ وَصَلا إِلى حُجْرَةِ الْعَرْشِ؛ حَيْثُ كانَ السُّلْطانُ يَتَفَرَّجُ عَلى قِرْدٍ يُصارِعُ جَرْوَ دُبٍّ، وَشُعاعُ الشَّمْسِ يَكادُ يَخْتَفي.

سَأَلَهُما السُّلْطانُ بِصَوْتٍ يَنِمُّ عَنْ خَيْبَةِ الْأَمَلِ: «بِرَبِّكُما، كَيْفَ تَمَكَّنْتُما مِنْ إِحْضارِ كُلِّ هٰذا الْكَرَزِ؟»

أَخْبَرَهُ عَلِيٌّ بِما فَعَلاهُ، فَقالَ السُّلْطانُ: «عَظيمٌ! يَبْدو أَنَّكَ تُضاهي أَباكَ في الذَّكاءِ. وَلٰكِنْ، هَلْ هٰذِهِ فِعْلًا سِتُّمِئَةِ كَرْزَةٍ في الْقَصْعَةِ؟»

فَرَدَّ عَلِيٌّ بِالْإِيجابِ، مُحاوِلًا إِخْفاءَ مَشاعِرِ الْخَوْفِ وَالْهَلَعِ.



قالَ السُّلْطانُ: «سَوْفَ نَرى». ثُمَّ أَمَرَ بِإِحْضارِ سُلْطانِيَّتِهِ الْمُفَضَّلَةِ، وَبَدَأَ يَعُدُّ حُبوبَ الْكَرَزِ الَّتي يَضَعُها فيها. إِبّانَ ذلِكَ، غابَتِ الشَّمْسُ كُلِّيًّا، وَدَخَلَ الْعَبيدُ لِإِشْعالِ الْمَصابيحِ. غَيْرَ أَنَّ السُّلْطانَ لَمْ يَتَوَقَّفْ عَنِ الْعَدِّ: «ثَلاثُمِئَةٍ وَأَرْبَعٌ وَخَمْسونَ، ثَلاثُمِئَةٍ وَخَمْسٌ وَخَمْسونَ...»، إِلى أَنْ قالَ لَدى وُصولِهِ إِلى قَعْرِ الْقَصْعَةِ: «خَمْسُمِئَةٍ وَتِسْعٌ وَتِسْعونَ... كَشَفْتُكَ! فَهذِهِ الأَخيرَةُ حَبَّةُ عِنَبٍ، وَلَيْسَتْ كَرَزَةً! لَقَدْ حاوَلْتَ خِداعي، أَيُّها الشَّقِيُّ!»

شَعَرَ عَلِيٌّ بِأَنَّ دُموعَهُ عَلى وَشْكِ أَنْ تَنْهَمِرَ عَلى خَدَّيْهِ، وَبِخاصَّةٍ عِنْدَما قالَ لَهُ السُّلْطانُ بِصَوْتٍ ناعِمٍ: «لَقَدْ حاوَلْتَ خِداعي؛ وَلِذا، فَإِنَّني سَأَرْميكَ أَنْتَ في الزِّنْزانَةِ الْعَميقَةِ».

كَلَمْحِ الْبَصَرِ، قَيَّدَ الْحُرّاسُ عُثْمانَ كَيْلا يُقاتِلَ دِفاعًا عَنْ عَلِيٍّ؛ ثُمَّ حَمَلوا عَلِيًّا، وَأَلْقَوْا بِهِ في الْحُفْرَةِ. وَقَبْلَ أَنْ يَتَمَكَّنَ عَلِيٌّ مِنَ التَّفَوُّهِ بِكَلِمَةِ «النَّجْدَةِ»، وَجَدَ نَفْسَهُ هابِطًا، هابِطًا؛ في الظُّلْمَةِ الْحالِكَةِ إِلى قَعْرِ تِلْكَ الزِّنْزانَةِ!





تَمنّى عَلِيٌّ خِلالَ السُّقوطِ الطَّويلِ أَنْ يَنْتَهِيَ الْأَمْرُ بِسُرْعَةٍ، وَيَبْتَلِعَهُ الْمارِدُ الْوَحْشِيُّ ابْتِلاعًا، لا أَنْ يَمْضُغَهُ بِبُطْءٍ!

في اللَّحْظَةِ التّالِيَةِ، وَقَعَ عَلِيٌّ مِنْ قَعْرِ الْحُفْرَةِ إِلى كَهْفٍ، يُوازي في مِساحَتِهِ مَدينَةً بِأَكْمَلِها؛ لكِنَّهُ لَمْ يَشْعُرْ بِصَوْتِ ارْتِطامٍ؛ لِأَنَّهُ وَقَعَ عَلى شَيْءٍ ناعِمٍ. اِسْتَوى جالِسًا، لِيَكْتَشِفَ أَنَّهُ جالِسٌ عَلى كَنَبَةٍ هائِلَةِ الْحَجْمِ. فَأَدْرَكَ عِنْدَئِذٍ لِمَ لا يَسْمَعُ أَحَدٌ صَوْتَ ارْتِطامِ الْمَرْمِيّينَ في الْحُفْرَةِ بِالْأَرْضِ. فَصَوْتُ الْوُقوعِ عَلى شَيْءٍ ناعِمٍ، لا يَصِلُ حَتّى إِلى فُتْحَةِ الْكَهْفِ.

وَشاهَدَ عَلِيٌّ جَمْعًا مِنَ النّاسِ التُّعَساءِ في مَكانٍ لَيْسَ بِبَعيدٍ؛ يَأْكُلونَ ما يُشْبِهُ قِطَعًا مِنْ جُذورِ الشَّجَرِ. وَوَراءَهُمْ، رَأى مارِدًا وَحْشِيًّا بِحَجْمِ مِئَةِ فيلٍ؛ ذا قَرْنَيْنِ سَوْداوَيْنِ رَهيبَيْنِ، وَذِراعَيْنِ طَويلَتَيْنِ مُحَرْشَفَتَيْنِ، وَمَخالِبَ أُرْجُوانِيَّةٍ ضَخْمَةٍ.

كانَ الْمارِدُ يُحَرِّكُ قِدْرًا مِنَ الْحِمَمِ الْبُرْكانِيَّةِ الْمَغْلِيَّةِ، تَتَمايَلُ في داخِلِها كَمِّيَّةٌ ضَخْمَةٌ مِنَ الْياقوتِ الْأَحْمَرِ وَالْياقوتِ الْأَزْرَقِ؛ فيما يَلْحَسُ شَفَتَيْهِ بِلِسانٍ ثُعْبانِيٍّ طَويلٍ، حالِكِ السَّوادِ.



اِسْتَدارَ الْمارِدُ إلى الْوَراءِ، وَرَأى عَلِيًّا. فَقالَ بِزَمْجَرَةٍ هادِرَةٍ: «يا لَحَظّي التَّعِسِ! مَخْلوقٌ بَشَرِيٌّ آخَرُ؟ وَطِفْلٌ، هذِهِ الْمَرَّةَ!».

وَضَعَ جانِبًا مِلْعَقَةَ الطَّبْخِ الضَّخْمَةَ، قائِلًا: «هذا وَضْعٌ لا يُطاقُ. أَلا يَكْفي ما أَتَحَمَّلُهُ مِنَ الزَّلازِلِ، لِيَتَساقَطَ عَلَيَّ الْبَشَرُ مِنَ السَّقْفِ مِثْلَ الْمَطَرِ! ما الَّذي فَعَلْتُهُ لِأُعاقَبَ هكَذا؟».

أَحْنى هامَتَهُ الْجَبّارَةَ، وَنَظَرَ بِعَيْنٍ صَفْراءَ مُسْتَديرَةٍ إِلى عَلِيٍّ؛ الَّذي شَعَرَ بِأَنَّ رائِحَةَ أَنْفاسِ الْمارِدِ أَسْوَأُ مِنْ رائِحَةِ الْبَيْضِ الْفاسِدِ!

تَنَهَّدَ الْمارِدُ الْوَحْشِيُّ، وَقالَ: «لَنْ تَكونَ أَفْضَلَ مِنَ الْبُكْمِ الْآخَرينَ، وَبِخاصَّةٍ لِأَنَّكَ مُجَرَّدُ طِفْلٍ».

فَهَبَّ عَلِيٌّ واقِفًا، وَقالَ: «أَنا لَسْتُ طِفْلًا، بَلْ في السّابِعَةِ مِنْ عُمْري. وَقَدْ خَطَوْتُ أولى خُطُواتي نَحْوَ الرُّجولَةِ».

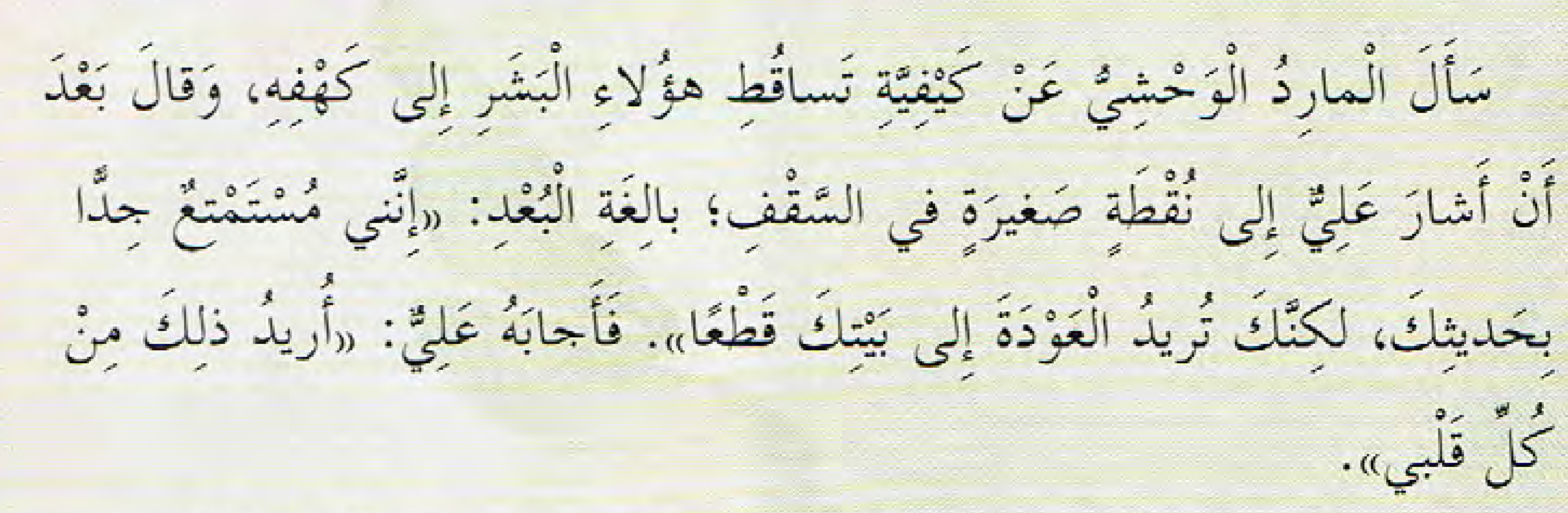
فَقالَ الْمارِدُ بِتَعَجُّبٍ: «أوه! إِنَّهُ مَخْلوقٌ ناطِقٌ! يُمْكِنُكَ، إِذًا، إِطْلاعي عَلى سَبَبِ إِزْعاجي، في اللَّيْلِ وَالنَّهارِ، بِهذا الْوابِلِ مِنَ الْبَشَرِ. لِماذا أَتَيْتَ إِلى هُنا؟ لا بُدَّ مِنْ أَنَّ وَضْعَكَ كانَ سَيِّئًا جِدًّا، لِأَنَّ جُذورَ الشَّجَرِ هِيَ كُلُّ ما لَدَيَّ لِإِطْعامِكَ».

أَخْبَرَهُ عَلِيٌّ بِما حَدَثَ لَهُ مَعَ السُّلْطانِ، وَكَيْفَ غَضِبَ مِنْهُ كَثيرًا، عِنْدَما وَجَدَ حَبَّةَ كَرَزٍ ناقِصَةً! فَقالَ الْمارِدُ الْوَحْشِيُّ: «يَبْدو أَنَّهُ بَشَرِيٌّ سَيِّئٌ».

«إِنَّهُ فِعْلًا سَيِّئٌ، وَشِرّيرٌ».

سَأَلَهُ الْمارِدُ: «هَلْ تَعْني أَنَّ هؤُلاءِ الْبَشَرَ لا يَرْغَبونَ في الْبَقاءِ هُنا؟»

فَأَجابَهُ عَلِيٌّ: «إِنَّهُمْ يَكْرَهونَ وُجودَهُمْ هُنا، وَهُمْ مُسْتَعِدّونَ لِلْمُغادَرَةِ فَوْرًا؛ إِنْ سَمَحْتَ لَهُمْ بِالذَّهابِ». فَالْتَفَتَ الْمارِدُ الْوَحْشِيُّ إِلَيْهِمْ بِابْتِسامَةٍ عَريضَةٍ أَرْعَبَتْهُمْ؛ وَقالَ: «كانَ عَلَيْهِمْ إِبْلاغي بِذلِكَ».





سَأَلَ الْمارِدُ الْوَحْشِيُّ عَنْ كَيْفِيَّةِ تَساقُطِ هؤُلاءِ الْبَشَرِ إِلى كَهْفِهِ، وَقالَ بَعْدَ أَنْ أَشارَ عَلِيٌّ إِلى نُقْطَةٍ صَغيرَةٍ في السَّقْفِ؛ بالِغَةِ الْبُعْدِ: «إِنَّني مُسْتَمْتِعٌ جِدًّا بِحَديثِكَ، لكِنَّكَ تُريدُ الْعَوْدَةَ إِلى بَيْتِكَ قَطْعًا». فَأَجابَهُ عَلِيٌّ: «أُريدُ ذلِكَ مِنْ كُلِّ قَلْبي».

«إِذًا، خُذْ هؤُلاءِ الْآخَرينَ مَعَكَ». ثُمَّ رَفَعَ الْمارِدُ ذِراعَهُ بِاتِّجاهِ تِلْكَ النُّقْطَةِ، وَأَخَذَ يُطيلُها؛ إِلى أَنْ اخْتَفَتْ داخِلَ الْحُفْرَةِ. وَقالَ لِعَلِيٍّ: «هَيّا تَسَلَّقوا، وَسَأَنْتَظِرُ».

نادى عَلِيٌّ أولَئِكَ التُّعَساءَ لِلَّحاقِ بِهِ، فَتَرَدَّدوا طَويلًا قَبْلَ الْبَدْءِ بِتَسَلُّقِ الذِّراعِ ذاتِ الْحَراشِفِ الَّتي مُدَّتْ إِلَيْهِمْ. وَكانوا بَيْنَ الْحينِ وَالْآخَرِ يُضْطَرّونَ إِلى الْاسْتِراحَةِ عَلى بَعْضِ التَّوَرُّماتِ الْقاسِيَةِ، لكِنَّ الْمارِدَ الصَّبورَ لَمْ يَتَذَمَّرْ.

قَفَزَ عَلِيٌّ إِلى قاعَةِ الْعَرْشِ، فَرَأى الْحُرّاسَ مُلْتَصِقينَ بِالْجُدْرانِ رُعْبًا. فَقَدْ بَرَزَتْ ذِراعُ الْمارِدِ مِنَ الْحُفْرَةِ كَالثُّعْبانِ، وَامْتَدَّتْ كَجُذورٍ هائِلَةِ الْأَحْجامِ؛ ثُمَّ أَطْبَقَتْ بِمَخالِبِها الْأُرْجُوانِيَّةِ الضَّخْمَةِ عَلى جِسْمِ السُّلْطانِ.

ما إِنْ خَرَجَ آخِرُ الْمُحَرَّرِينَ مِنْ زَنْزانَةِ الْمَنْسِيّينَ، حَتّى انْكَمَشَتْ تِلْكَ الذِّراعُ عائِدَةً إِلى الْكَهْفِ، بِالسُّلْطانِ الْمُوَلْوِلِ الْخائِفِ. أَصْغى عَلِيٌّ جَيِّدًا، فَلَمْ يَسْمَعْ صَوْتَ ارْتِطامٍ؛ وَأَسْعَدَهُ أَلّا يَسْمَعَ أَيْضًا صَوْتَ مَضْغٍ.

هَلَّلَ الْمِصْرِيّونَ لِلتَّخَلُّصِ مِنَ الْحاكِمِ الشِّرّيرِ، وَبايَعوا أَبا عَلِيٍّ سُلْطانًا عَلَيْهِمْ؛ كَما نادَوْا بِعَلِيٍّ وَلِيًّا لِلْعَهْدِ. أَعْتَقَ السُّلْطانُ الْجَديدُ عَبْدَهُ عُثْمانَ، وَعَيَّنَهُ قَيِّمًا عَلى الْحَمامِ الزّاجِلِ؛ كَما أَمَرَ بِرَدْمِ الزَّنْزانَةِ إِلى الأَبَدِ.

أَمّا سَعيد، فَقَدْ أُعْفِيَ مِنْ نَقْلِ الرَّسائِلِ فَاحْتَفَظَتْ بِهِ أُخْتا عَلِيٍّ حَيَوانًا مُدَلَّلًا، وَبِتَناوُلِ الْكَعْكاتِ الْمُعَسَّلاتِ الْمُسَمِّناتِ لَمْ يَعُدْ في اسْتِطاعَتِهِ الطَّيَرانُ أَكْثَرَ مِنْ دَجاجَةٍ. لكِنَّهُ لَمْ يَأْبَهْ لِذلِكَ، لِأَنَّهُ كانَ بِالْفِعْلِ... سَعيدًا.

... مِثْلَما كانَ الْجَميعُ سُعَداءَ!





مُلاحَظَةُ الْمُؤَلِّفَة

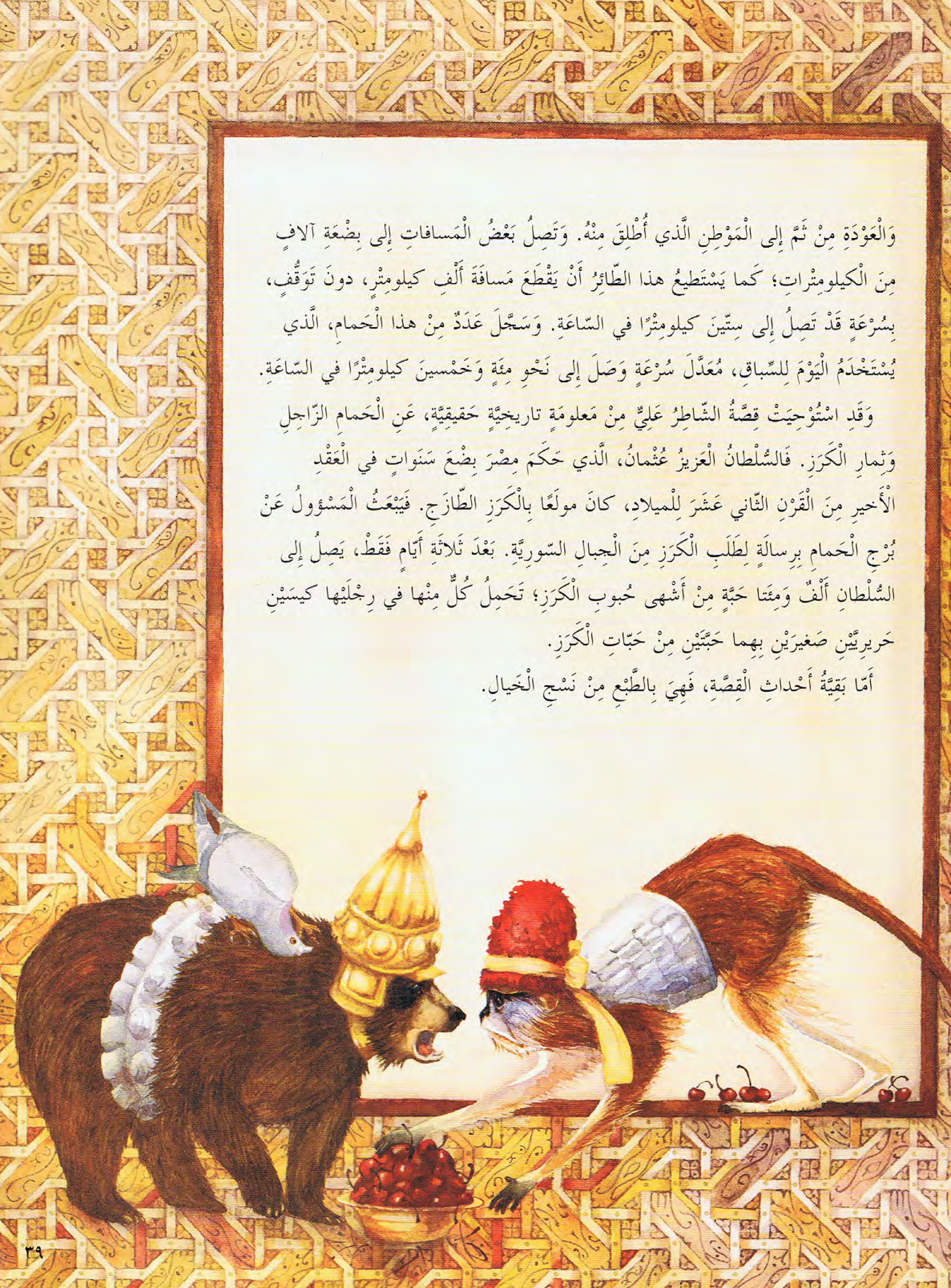
جَرى أَوَّلُ اسْتِخْدامٍ مُسَجَّلٍ لِلْحَمامِ الزّاجِلِ، في نَقْلِ الرَّسائِلِ، قَبْلَ خَمْسَةِ آلافِ عامٍ؛ حينَ كانَ الْمِصْرِيّونَ الْقُدَماءُ يُطْلِقونَهُ مِنَ السُّفُنِ الْعائِدَةِ، لِتَنْبيهِ السُّلُطاتِ إلى وُصولِ شَخْصِيّاتٍ هامَّةٍ. وَاسْتَخْدَمَتْهُ بَعْدَ ذلِكَ حَضاراتُ ما بَيْنَ النَّهْرَيْنِ، وَالْإِغْريقِ، وَالرّومانِ. فَقَدِ اسْتَخْدَمَهُ الْإِغْريقُ لِنَقْلِ أَخْبارِ الْانْتِصاراتِ في الْأَلْعابِ الْأولِمْبِيَّةِ؛ كَما اسْتَخْدَمَهُ الْقادَةُ الْعَسْكَرِيّونَ الرّومانُ لِإِطْلاعِ روما عَلى تَحَرُّكاتِهِمْ. لكِنَّ الْمُرَجَّحَ أَنَّ حُكّامَ مِصْرَ في الْقُرونِ الْوُسْطى لِلْميلادِ، كانَتْ لَدَيْهِمْ أَفْضَلُ شَبَكَةٍ عَلى الْإِطْلاقِ، لِنَقْلِ الرَّسائِلِ بِالْحَمامِ الزّاجِلِ.

في أَواخِرِ الْقَرْنِ الثّاني عَشَرَ لِلْميلادِ، كانَ بُرْجُ الْحَمامِ في الْقاهِرَةِ يَضُمُّ نَحْوَ أَلْفَيْنِ مِنَ الْحَمامِ الزّاجِلِ؛ بِالْإِضافَةِ إِلى مِئاتٍ أُخْرى في مَحَطّاتِ التَّرْحيلِ، الْمُوَزَّعَةِ عَلى خُطوطِ السَّفَرِ الرَّئيسِيَّةِ.

كانَتِ الرَّسائِلُ تُكْتَبُ عَلى وَرَقٍ خاصٍّ، خَفيفِ الْوَزْنِ نِسْبِيًّا، وَتُرْبَطُ الْقُصاصَةُ تَحْتَ جَناحِ الْحَمامَةِ لِاتِّقاءِ الْمَطَرِ. وَمَعَ تَحَسُّنِ نَوْعِيّاتِ الْوَرَقِ وَالْحِبْرِ، صارَتِ الرَّسائِلُ تُرْبَطُ بِأَرْجُلِ الْحَمامِ.

وَقَدْ دَأَبَ الْمَسْؤولونَ عَلى أَبْراجِ الْحَمامِ الزّاجِلِ، وَما زالوا حَتّى يَوْمِنا هذا، عَلى الْاحْتِفاظِ بِسِجِلّاتٍ عَنْ سَلاسِلِ النَّسَبِ وَالتّاريخِ الطِّبِّيِّ لِلْحَمامِ؛ بِمِثْلِ الْأَهَمِّيَّةِ الَّتي يوليها أَصْحابُ خُيولِ السِّباقِ لِلْجِيادِ الْأَصيلَةِ. وَكانَتْ قيمَةُ الزَّوْجِ الْمُدَرَّبِ جَيِّدًا مِنَ الْحَمامِ الزّاجِلِ تَصِلُ أَحْيانًا إِلى نَحْوِ أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِئَةِ دينارٍ ذَهَبِيٍّ - أَيْ أَكْثَرَ بِكَثيرٍ مِمّا كانَ يُدْفَعُ لِشِراءِ أَحَدِ الْعَبيدِ.

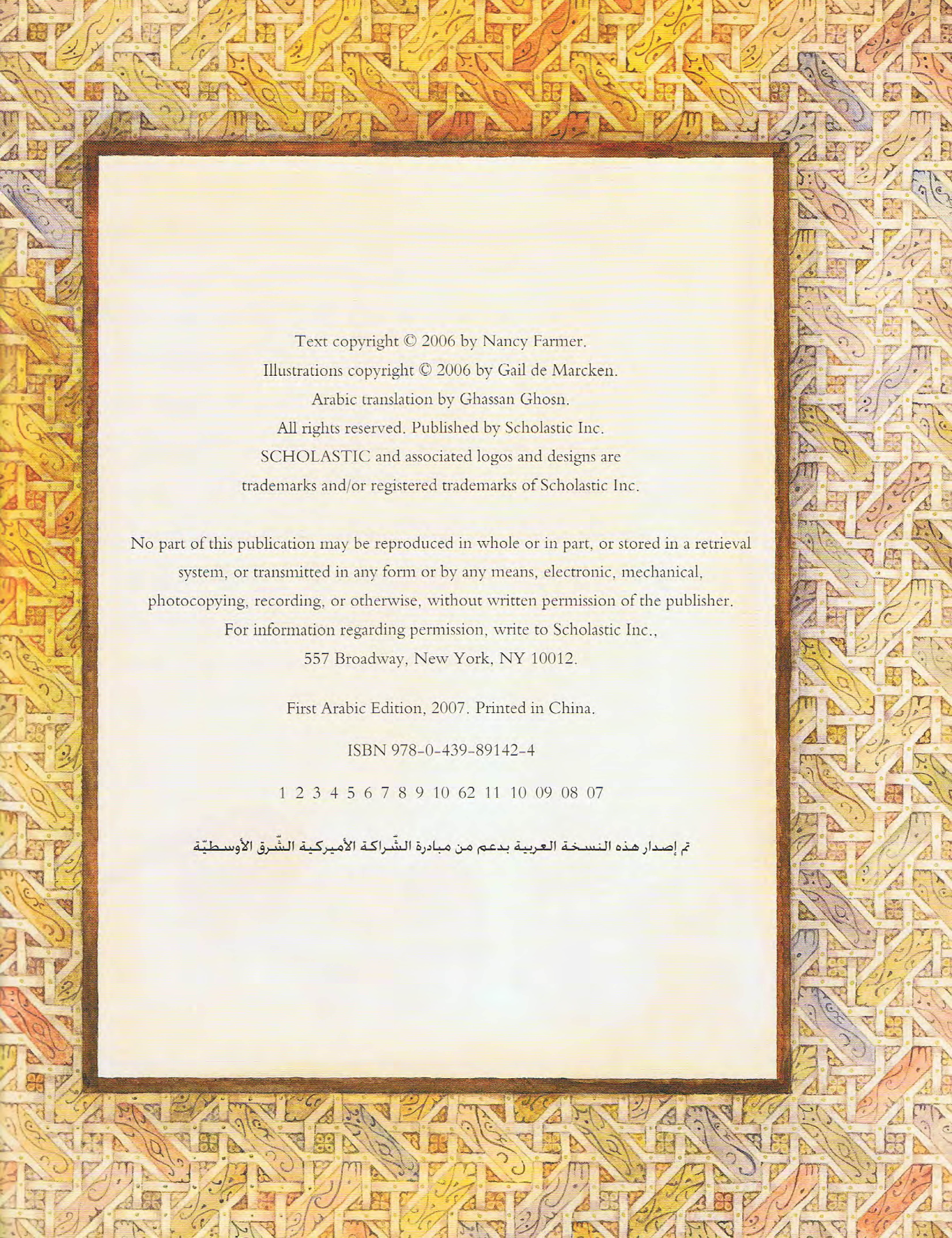
يُدَرَّبُ الْحَمامُ الزّاجِلُ، مُنْذُ الْقَديمِ، عَلى الطَّيَرانِ السَّريعِ مَسافاتٍ بَعيدَةً جِدًّا؛



وَالْعَوْدَةِ مِنْ ثَمَّ إلى الْمَوْطِنِ الَّذي أُطْلِقَ مِنْهُ. وَتَصِلُ بَعْضُ الْمَسافاتِ إلى بِضْعَةِ آلافٍ مِنَ الْكيلومِتْراتِ؛ كَما يَسْتَطيعُ هذا الطّائِرُ أَنْ يَقْطَعَ مَسافَةَ أَلْفِ كيلومِتْرٍ، دونَ تَوَقُّفٍ، بِسُرْعَةٍ قَدْ تَصِلُ إلى سِتّينَ كيلومِتْرًا في السّاعَةِ. وَسَجَّلَ عَدَدٌ مِنْ هذا الْحَمامِ، الَّذي يُسْتَخْدَمُ الْيَوْمَ لِلسِّباقِ، مُعَدَّلَ سُرْعَةٍ وَصَلَ إلى نَحْوِ مِئَةٍ وَخَمْسينَ كيلومِتْرًا في السّاعَةِ.

وَقَدِ اسْتُوْحِيَتْ قِصَّةُ الشّاطِرُ عَلِيٍّ مِنْ مَعلومَةٍ تاريخيَّةٍ حَقيقيَّةٍ، عَنِ الْحَمامِ الزّاجِلِ وَثِمارِ الْكَرَزِ. فَالسُّلْطانُ الْعَزيزُ عُثْمانُ، الَّذي حَكَمَ مِصْرَ بِضْعَ سَنَواتٍ في الْعَقْدِ الْأَخيرِ مِنَ الْقَرْنِ الثّاني عَشَرَ لِلْميلادِ، كانَ مولَعًا بِالْكَرَزِ الطّازَجِ. فَيَبْعَثُ الْمَسْؤولُ عَنْ بُرْجِ الْحَمامِ بِرِسالَةٍ لِطَلَبِ الْكَرَزِ مِنَ الْجِبالِ السّوريَّةِ. بَعْدَ ثَلاثَةِ أَيّامٍ فَقَطْ، يَصِلُ إلى السُّلْطانِ أَلْفٌ وَمِئَتا حَبَّةٍ مِنْ أَشْهى حُبوبِ الْكَرَزِ؛ تَحمِلُ كُلٌّ مِنْها في رِجْلَيْها كيسَيْنِ حَريريَّيْنِ صَغيرَيْنِ بِهِما حَبَّتَيْنِ مِنْ حَبّاتِ الْكَرَزِ.

أَمّا بَقيَّةُ أَحْداثِ الْقِصَّةِ، فَهِيَ بِالطَّبْعِ مِنْ نَسْجِ الْخَيالِ.



Arabic translation by Ghassan Ghosn.

First Arabic Edition, 2007. Printed in China.

ISBN 978-0-439-89142-4

1 2 3 4 5 6 7 8 9 10 62 11 10 09 08 07

تم إصدار هذه النسخة العربية بدعم من مبادرة الشّراكة الأميركية الشّرق الأوسطيّة

SCHOLASTIC
www.scholastic.com

نيويورك • تورونتو • لندن • أوكلند • سدني
مكسيكو سيتي • نيو دلهي • هونغ كونغ • بوينس إيريس

